

وهو الأمر الذي تقررته هذه السورة . وهذه حلقة من حلقات التربية في الجماعة المسلمة التي يعدها الله لتقوم على هذا الأمر .

فإذا جئنا للموضوع المباشر الذي كانت هذه الآيات تواجهه عند نزولها .. وهو موضوع الجهاد .. فإننا نقف أمام موضوعات شتى للحديث والملاحظة والعبرة .

نقف أولاً أمام النفس البشرية التي تلم بها لحظات الضعف الطارئة ، فلا يعصمها منها إلا عون الله ، وإلا التذكير الدائم . والتوجيه الدائم . والتربية الدائمة .. فهؤلاء جماعة من المسلمين قيل في بعض الروايات : إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن الله لهم في القتال وهم في مكة من شدة الحماس والاندفاع . وكانوا يؤمرون بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة « فلما كتب عليهم القتال » في المدينة في الوقت المناسب الذي قدره الله ، إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتب علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! « .. أو هم جماعة من المسلمين في المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ليفعلوه فلما أمروا بالجهاد كرهوه !

وهذه الوقفة كفيلة بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه ، وهي تواجه التكاليف الشاقة ، لتستقيم في طريقها ، وتتغلب على لحظات ضعفها ، وتتطعم دائماً إلى الأفق البعيد . كما تلهمنا أن نتواضع في طلب التكاليف وتمنيها ونحن في حالة العافية ! فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين يكلفنا إياه ! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون ما لا يفعلون ؛ حتى يعاتبهم الله هذا العتاب الشديد ، وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف !

ونقف ثانية أمام حب الله للذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .. نقف أمام هذا الإغراء القوي العميق على القتال في سبيل الله .. وأول ما يسجل هنا أنه كان لمواجهة حالة تقاعس وتخلف وكرهية للقتال . ولكن هذا السبب الغريب في الحادث المحدود لا ينفي أن الحضر عام ، وأن وراءه حكمة دائمة .

إن الإسلام لا يتشبه القتال ، ولا يريد به حباً فيه . ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه ، ولأن الهدف الذي وراءه كبير . فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهي في صورته الأخيرة المستقرة . وهذا المنهج - ولو أنه يلي الفطرة المستقيمة - إلا أنه يكلف النفوس جهداً لتسمو إلى مستواه ، ولتستقر على هذا المستوى الرفيع . وهناك قوى كثيرة في هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر ، لأنه يسلبها كثيراً من الامتيازات ، التي تستند إلى قيم باطلة زائفة ، يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر . وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في المستوى الإيماني وتكاليفه ، كما تستغل جهل العقول ، وموروثات الأجيال ، لتعارض هذا المنهج وتقف في طريقه . والشر عارم . والباطل متبعج . والشيطان لئيم ! ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان . أقوياء في أخلاقهم ، وأقوياء في قتال خصومهم على السواء . ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد ، وحرية الاعتقاد به ، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم .

وهم يقاتلون في سبيل الله .. لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون .. عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية العشيرة وعصبية البيت ... في سبيل الله وحده ، لتكون كلمة الله هي العليا . والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »^١

(١) أخرجه الخمسة .

وكلمة الله هي التعبير عن إرادته . وإرادته الظاهرة لنا - نحن البشر - هي التي تتفق مع الناموس الذي يسير عليه الكون كله . الكون الذي يسبح بحمد ربه . ومنهج الله في صورته الأخيرة التي جاء بها الإسلام هو الذي يتناسق مع ذلك الناموس ؛ ويجعل الكون كله - والناس من ضمنه - يحكمون بشريعة الله . لا بشرية يضعها سواه .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد ، وأن تقاومه طبقات ، وأن تقاومه دول . ولم يكن بد كذلك أن يمضي الإسلام في وجه هذه المقاومة ؛ ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذا المنهج ، وتحقيق كلمة الله في الأرض . ولهذا أحب الله - سبحانه - الذين يقاتلون في سبيله صفاء كأنهم بنيان مرصوص^١ .

ونقف ثالثاً أمام الحالة التي يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها : « صفاء كأنهم بنيان مرصوص » .. فهو تكليف فردي في ذاته ، ولكنه فردي في صورة جماعية . في جماعة ذات نظام . ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوة جماعية ، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ؛ فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفاء . صفاء سوياً منتظماً ، و صفاء متيناً راسخاً ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة ، وأن ينشئ مجتمعاً متماسكاً .. متناسقاً . فصورة الفرد المنزل الذي يعبد وحده ، ويجاهد وحده . ويعيش وحده ، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين ، وعن مقتضياته في حالة الجهاد ، وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة .

وهذه الصورة التي يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم ، وتوضح لهم معالم الطريق . وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع : « صفاء كأنهم بنيان مرصوص » .. بنيان تتعاون لبناته وتتضام وتتماسك ، وتؤدي كل لبنة دورها ، وتسد ثغرتها ، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها . تقدمت أو تأخرت سواء . وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبيها سواء .. إنه التعبير المصور للحقيقة لا مجرد التشبيه العام . التعبير المصور لطبيعة الجماعة ، ولطبيعة ارتباطات الأفراد في الجماعة . ارتباط الشعور ، وارتباط الحركة ، داخل النظام المرسوم ، المتجه إلى هدف مرسوم .

* * *

بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهي ومراحلها في الرسالات قبل الإسلام .

« وإذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لا يهدي القوم الفاسقين .

« وإذ قال عيسى بن مريم : يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ..

وإذاء بني إسرائيل لموسى - وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم - إيداء متداول متعدد الألوان ، وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مضمّن عسير شاق . ويذكر القرآن في قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيداء ومن هذا العناء .

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لاثمين متبرمين : « أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ! » كأنهم لا يرون في رسالته

(١) يراجع فصل سلام العالم في كتاب : السلام العالمي والإسلام . « دار الشروق » .

خيراً ، أو كأنما يحملونه تبعه هذا الأذى الأخير !

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون .. حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه .. « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » .. وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح ، حتى أضلهم السامري : « فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي ! » ..

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم في الصحراء : المن والسلوى . فقالوا : « يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » !

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيثون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون : « ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » .. « ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » .. « ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا » .. « فذبحوها وما كادوا يفعلون » !

ثم طلبوا يوم عطلة مقدساً فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدhem في الوقت ذاته لموسى : « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون » .. فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا : « قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون » ..

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد ، والالتهام الشخصي بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة :

« يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم ؟ » ..

وهم كانوا يعلمون عن يقين .. إنما هي لهجة العتاب والتذكير ..

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيفاً ، وأزاع قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » ..

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم على هذا الزيف والضلال .

ثم جاء عيسى بن مريم . جاء يقول لبني إسرائيل :

« يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم » ..

فلم يقل لهم : إنه الله ، ولا إنه ابن الله ، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله .

« مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ..

في هذه الصيغة التي تصور حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهي متماسكة في حقيقتها ، واحدة في اتجاهها ، ممتدة من السماء إلى الأرض ، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة .. وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه . فهو منهج واحد في أصله ، متعدد في صورته ، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقتها ، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري ، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة ، تخاطب العقل الراشد ، في ضوء تلك التجارب ، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده ،

داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته ، المتفق مع طاقاته واستعداداته .
وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها . فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن .
وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه : « النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » .. وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة ، التي كانوا يتواصون بتكتمها !

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلمهم زمانه ، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أخبار النصارى في الجزيرة العربية . ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم . فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، كرهوا هذا وحاربوه !
وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار . وهو القول الأخير ..

* * *

ويبدو أن الآيات التالية في السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل - اليهود والنصارى - للنبي الذي بشرت به كتبهم . والتنديد بهذا الاستقبال ، وكيدهم للدين الجديد الذي قدر الله أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون هو الدين الأخير !

« فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ..

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل ، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم . حاربوه بالاتهام : « فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » .. كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد . وحاربوه بالدس والوقعة داخل المعسكر الإسلامي ، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة ، وبين الأوس والخزرج من الأنصار . وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة . وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب . وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبد الله بن أبي بن سلول ، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله بن سبأ . وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير - حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم .

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام ، وظللتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال . حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق ، وحاربوه في الأندلس في المغرب ، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حرباً شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه « الرجل المريض » .. واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام . فلما أرادوا تحطيم « الخلافة » والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا « بطلاً » ! .. ونفخوا فيه . وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقيق منه بطلاً في أعين مواطنيه . بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة ، وإلغاء اللغة العربية ، وفصل تركيا عن المسلمين ، وإعلانها دولة مدنية لا علاقة

لها بالدين ! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين ، ليقوموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ! وراية غير راية الدين .
« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون » ..

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة ، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم : « هذا سحر مبین » .. ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد . وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل !

« والله متم نوره ولو كره الكافرون » .. وصدق وعد الله . أتم نوره في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار . صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة ، ترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب ، ولكن حقيقة في عالم الواقع . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه ، ويجاهدون في سبيله ، ويرضى أحدهم أن يلقي في النار ولا يعود إلى الكفر . فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء . وما تزال هذه الحقيقة تبعث بين الحين والحين . وتنفض وتنفض قائمة - على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد . لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه ، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد ، في أيدي العبيد ! وإن خيل للطغاة الجبارين ، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد !

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فكان من الحتم أن يكون :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » ..

وشهادة الله لهذا الدين بأنه « الهدى ودين الحق » هي الشهادة . وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة . ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله . ظهر في ذاته كدين ، فما ثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته . فأما البيانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال . وأما البيانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها ، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها ، فهو هي ، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان .

ولقد حرفت تلك البيانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها ، ونقصت من أطرافها ، وانتهت لحال لا تصلح معه شيء من قيادة الحياة . وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبداً ، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود .

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته . فأما من ناحية واقع الحياة ، فقد صدق وعد الله مرة ، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان . ثم زحف زحفاً سلمياً بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية ، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى .. وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة - منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على أيدي « البطل » الذي صنعوه ! - وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد ، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي « أبطال » آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء . وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها ، ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقاً لوعد الله ، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل ، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل !

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى . وكانت تطمئناً لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر ، وإن هم إلا أداة . وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم ، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة . بإذن الله .

* * *

وفي ظلال قصة العقيدة ، وفي مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير .، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا .. من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين .. يهتف بهم إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة . تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب .، وبشر المؤمنين .. »

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل ، واستفهام وجواب ، وتقديم وتأخير ، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية .

يبدأ بالنداء باسم الإيمان : « يا أيها الذين آمنوا » .. يليه الاستفهام الموحى . فالله - سبحانه - هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ » ..

ومن ذا الذي لا يشاق لأن يدلله الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهي هذه الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق . ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع : « تؤمنون بالله ورسوله » .. وهم مؤمنون بالله ورسوله . فتشرق قلوبهم عند سماع بشر الجواب هذا المتحقق فيهم ! « وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .. وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة ، يجيء في هذا الأسلوب ، ويكرر هذا التكرار ، ويساق في هذا السياق . فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار ، وهذا التنويع ، وهذه الموحيات ، لتنهض بهذا التكليف الشاق ، الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض ... ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .. فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد .. ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة ، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه ، ويقره في الحس ويمكن له : « يغفر لكم ذنوبكم » .. وهذه وحدها تكفي . فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء ؟ أو يدخر في سبيلها شيئاً ؟ ولكن فضل الله ليست له حدود : « ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن » .. وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقم .. وحقاً .. « ذلك الفوز العظيم » ..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرباحة . وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة . فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق . فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض ، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلوداً لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله . ومتاعاً غير مقطوع ولا ممنوع ؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - ليلة العقبة . قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشترط لربك ولنفسك ما شئت » . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » .. قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ولا نشتري ! ولكن فضل الله عظيم . وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض ، يناسب تركيبها البشري المحدود . وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض ، وتحقيق منهجه وهيمته على الحياة في ذلك الجيل : « وأخرى تجبونها : نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين » .. وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله . الله الذي لا تنفذ خزائنه ، والذي لا ممسك لرحمته . فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعم المقيم في الآخرة . وفوقها .. فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب .. فمن الذي يدلله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد ؟ !

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب .. إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ، ويعيش بقلبه في هذا التصور ، ويطلع على آفاقه وآماده ، ثم ينظر للحياة بغير إيمان ، في حدودها الضيقة الصغيرة ، وفي مستوياتها الهابطة الواطية ، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة .. هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان ، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الواسع الرفيع في عالم الواقع ، ليعيش فيه ، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك .. ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجراً خارجاً عن ذاته . فهو ذاته أجر .. هذا الجهاد .. وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح . ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان . ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان . فهو مدفوع دفعاً إلى الجهاد . كائناً مصيره فيه ما يكون ..

ولكن الله - سبحانه - يعلم أن النفس تضعف ، وأن الاندفاع يهبط ، وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط ..

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ، ويعالجها ذلك العلاج ، ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهمتاف المتكرر المتنوع ، في شتى المناسبات . ولا يكلها إلى مجرد الإيمان ، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان . فها هو ذا يختم السورة بنداء جديد ، يحمل طابعاً جديداً ، وإغراء جديداً ، وموحياً جديداً :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » ..

والحواريون هم تلاميذ المسيح - عليه السلام - قيل : الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به ، وينقطعون للتلقي عنه . وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة ، ففسر نحن معها في ظلها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » .. في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله . وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيراً للرب ؟ ! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعم .. كونوا أنصار الله ، « كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار

الله .. فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم . وعيسى جاء ليبشر بالنبى الجديد والدين الأخير .. فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم ، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ! وهذه هي اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق .
وماذا كانت العاقبة ؟

« فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » .. وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين : إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقاً من استقام ومن دخلت في عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً كما حدث في التاريخ . وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد في وجه المؤهلين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التي انحرفت عن التوحيد . ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي بالحجة والبرهان . أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير ؛ وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ . وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبرة التي أشرنا إليها ، وهي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمانة على منهج الله في الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية . المختارين لهذه المهمة الكبرى . استنهاض همهم لنصرة الله ونصرة دينه « كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله » .. والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين .

إنها الجولة الأخيرة في السورة ، واللمسة الأخيرة في السياق ؛ وهي ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها ، مع ما فيها من تجدد في اللون وتنوع في المذاق ..

* * *

(٦٢) سُورَةُ الْجُمُعَةِ مِلَانِيَّةً
وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخِرِينَ
مِّنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾
مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ
الَّذِي تَقْرَوْنَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾
وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ مِنِ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ
الرَّزَاقِينَ ﴿١١﴾

نزلت هذه السورة بعد سورة «الصف» السابقة . وهي تعالج الموضوع الذي عاجلته سورة الصف ، ولكن
من جانب آخر ، وبأسلوب آخر ، وبمؤثرات جديدة .
إنها تعالج أن تقر في أخلاذ الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المختارة أخيراً لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ؛

وأن هذا فضل من الله عليها ؛ وأن بعثة الرسول الأخير في الأميين - وهم العرب - منة كبرى تستحق الالتفات والشكر ، وتقتضي كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التي استجابت للرسول ، واحتملت الأمانة ؛ وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبثة ، فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعدما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ؛ وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفاراً ، ولا وظيفة له في إدراكها ، ولا مشاركة له في أمرها !

تلك هي الحقيقة الرئيسية التي تعالج السورة إقرارها في قلوب المسلمين . من كان منهم في المدينة يومذاك على وجه الخصوص ، وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامي في صورة واقعة . ومن يأتي بعدهم ممن أشارت إليهم السورة ، وضممتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان .

وفي الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة في تلك الجماعة الأولى ؛ في أثناء عملية البناء النفسي العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة في الربح ، وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى ، والاستعداد النفسي لها . وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطبهم في المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ؛ فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذي كانت القافلة تحاط به - على عادة الجاهلية - من ضرب بالدفوف وحذاء وهيصة ! وتركوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائماً . فيما عدا اثني عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون ! كما تذكر الروايات ، التي قد لا تكون دقيقة من حيث العدد ، ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه إليها في القرآن الكريم .

وهي حادثة تكشف بذاتها عن مدى الجهد الذي بذل في تربية تلك الجماعة الأولى حتى انتهت إلى ما انتهت إليه ؛ وحتى صارت ذلك النموذج الفريد في تاريخ الإسلام وفي تاريخ البشرية جميعاً . وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس في أي جيل من الأجيال ، لتكوين الجماعة المسلمة التي تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة ، وتحاول تحقيقها في عالم الواقع كما حققتها الجماعة الأولى .

وفي السورة مباهلة مع اليهود ، بدعوتهم إلى تمني الموت للمبطلين من الفريقين وذلك رداً على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن بعثة الرسول في غيرهم لا تكون ! كما كانوا يدعون ! مع جزم القرآن بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التي دعوا إليها فنكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم . وتعقب السورة على هذا بتقرير حقيقة الموت الذي يفرون منه ، وأنه ملاقيهم مهما فروا ، وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فنبئهم بما كانوا يعملون .. وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم ، إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله في نفوس المؤمنين كذلك . فهذه الحقيقة لا بد أن تستقر في نفوس حملة أمانة الله في الأرض ، لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق !

هذا هو اتجاه السورة ، وهو قريب من اتجاه سورة الصف قبلها ، مع تميز كل منهما بالجانب الذي تعالجه ، وبالأسلوب الذي تأخذ القلوب به ، والظلال التي تلقيها هذه وتلك في الاتجاه الواحد العام . فلننظر كيف يتناول الأسلوب القرآني هذا الاتجاه ..

* * *

« يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض ، الملك القدوس العزيز الحكيم » ..

هذا المطلع يقرر حقيقة التسييح المستمرة من كل ما في الوجود لله ؛ ويصفه - سبحانه - بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة . السورة التي اسمها « الجمعة » وفيها تعليم عن صلاة الجمعة ، وعن التفرغ لذكر الله في وقتها ، وترك اللهو والتجارة ، وابتغاء ما عند الله وهو خير من اللهو ومن التجارة . ومن ثم تذكر : « الملك » .. الذي يملك كل شيء بمناسبة التجارة التي يسارعون إليها ابتغاء الكسب . وتذكر « القدوس » الذي يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتتزيه كل ما في السماوات والأرض ، بمناسبة اللهو الذي ينصرفون إليه عن ذكره . وتذكر « العزيز » .. بمناسبة المباهلة التي يدعى إليها اليهود والموت الذي لا بد أن يلاقي الناس جميعاً والرجعة إليه والحساب . وتذكر « الحكيم » .. بمناسبة اختياره الأميين ليعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .. وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال .

* * *

ثم يبدأ في موضوع السورة الرئيسي :

« هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » ..

قيل إن العرب سمو الأميين لأنهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون - في الأعم الأغلب - وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : الشهر هكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال : « إنا نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب » .. وقيل : إنما سمي من لا يكتب أمياً لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم .

وربما سمو كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم : إنهم « جويم » باللغة العبرية أي أميون . نسبة إلى الأمم - بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم ! - والنسبة في العربية إلى المفرد .. أمة .. أميون . وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة .

ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم ، فيجمعهم بعد فرقة ، وينصرهم بعد هزيمة ، ويعزهم بعد ذل . وكانوا يستفتحون بهذا على العرب ، أي يطلبون الفتح بذلك النبي الأخير .

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب ، من الأميين غير اليهود ؛ فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية - كما سيحيى في المقطع التالي في السورة - وأنها زاعت وضلت كما جاء في سورة الصف . وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعدما كان منها في تاريخها الطويل ! وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - تلك الدعوة التي أطلقها في ظل البيت هو وإسماعيل عليه السلام : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم » .. كانت هناك هذه الدعوة من وراء الغيب ، ومن وراء القرون ، محفوظة عند الله لا تضع ، حتى يجيء موعدها المقدر في علم الله ، وفق حكمته ؛ وحتى تتحقق في وقتها المناسب في قدر الله وتسيقه ، وحتى تؤدي دورها في الكون حسب التدبير الإلهي الذي لا يستقدم معه شيء ، ولا يستأخر عن موعده المرسوم .

(١) ذكره الإمام الجصاص صاحب أحكام القرآن بغير إسناد .

وتحققت هذه الدعوة - وفق قدر الله وتدبيره - بنصها الذي تعيده السورة هنا لتذكر بحكاية ألفاظ إبراهيم .. « رسلاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. كما قال إبراهيم ! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم : « إنك أنت العزيز الحكيم » هي ذاتها التي تعقب على التذكير بمنة الله وفضله هنا : « وهو العزيز الحكيم » .

وقد سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نفسه فقال : « دعوة أبي إبراهيم . وبشرى عيسى . ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام »^١ .
« هو الذي بعث في الأميين رسلاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ..

والمنة ظاهرة في اختيار الله للأميين ليجعلهم أهل الكتاب المبين ؛ وليرسل فيهم رسلاً منهم ، يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ؛ ويخرجهم من أميتهم أو من أميتهم بتلاوة آيات الله عليهم ، وتغيير ما بهم ، وتمييزهم على العالمين ..

« ويزكيهم » .. إنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - تطهير للضمير والشعور ، وتطهير للعمل والسلوك ، وتطهير للحياة الزوجية ، وتطهير للحياة الاجتماعية . تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ؛ ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح ، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح . وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني . ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال .. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع . تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه ، ويتعامل مع الملأ الأعلى ؛ ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم^٢ .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. يعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب . ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور ، ويحسنون التقدير ، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير .
« وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .. ضلال الجاهلية التي وصفها جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ليكرهاه في المهاجرين من المسلمين ، ويشوها موقفهم عنده ، فيخرجهم من ضيافته وجيرته .. فقال جعفر :

« أيها الملك . كنا قوماً أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأثي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف .. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسلاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » ..

(١) من رواية ابن إسحاق .. حدثني ثور بن زيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد ، وروى له شواهد من وجوه آخر ..

(٢) يراجع بتوسع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب « دار الشروق » .

ومع كل ما كانوا عليه في الجاهلية من ضلال فقد علم الله أنهم هم حملة هذه العقيدة الأمانة عليها ، بما علم في نفوسهم من استعداد للخير والصلاح ؛ ومن رصيد مذخور للدعوة الجديدة ؛ وقد فرغت منه نفوس اليهود التي أفسدها الذل الطويل في مصر ، فامتألت بالعقد والاتواء والانحرافات ، ومن ثم لم تستقم أبداً بعد ذلك ، لا في حياة موسى عليه السلام ، ولا من بعده . حتى كتب الله عليهم لعنته وغضبه ، وانتزع من أيديهم أمانة القيام على دينه في الأرض إلى يوم القيامة .

وعلم الله أن الجزيرة في ذلك الأوان هي خير مهد للدعوة التي جاءت لتحرير العالم كله من ضلال الجاهلية ، ومن انحلال الحضارة في الامبراطوريات الكبيرة ، التي كان سوس الانحلال قد نخر فيها حتى اللباب ! هذه الحالة التي يصفها كاتب أوربي حديث فيقول :

« ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها أربعة آلاف سنة ، مشرقة على التفكك والانحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهايار بدلاً من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية ، كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب ... وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه » ..

وهذه الصورة مأخوذة من زاوية النظر لكاتب أوربي . وهي من زاوية النظر الإسلامية أشد عتماً وظلاماً ! وقد اختار الله - سبحانه - تلك الأمة البدوية في شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين ، بما علم في نفوسها وفي ظروفها من قابلية للاستصلاح وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء . فأرسل فيهم الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

« وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » ..

وهؤلاء الآخرون وردت فيهم روايات متعددة ..

قال الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور ، عن أبي الغيث ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « كنا جلوساً عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفيما سلمان الفارسي ، فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء » . فهذا يشير إلى أن هذا النص يشمل أهل فارس . ولهذا قال مجاهد في هذه الآية : هم الأعاجم وكل من صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - من غير العرب . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدي . قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن في أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب » ثم قرأ :

(١) للكاتب ج . ه . دنيسون في كتاب : العواطف كأساس للحضارة .. نقلاً عن كتاب : الإسلام والنظام العالمي الجديد تأليف مولاي محمد

علي وترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) .. يعني بقية من بقي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وكلا القولين يدخل في مدلول الآية . فهي تدل على آخرين غير العرب . وعلى آخرين غير الجيل الذي نزل فيه القرآن . وتشير إلى أن هذه الأمة موصولة الحلقات ممتدة في شعاب الأرض وفي شعاب الزمان ، تحمل هذه الأمانة الكبرى ، وتقوم على دين الله الأخير .

« وهو العزيز الحكيم » .. القوي القادر على الاختيار . الحكيم العليم بمواضع الاختيار .. واختياره للمتقدمين والمتأخرين فضل وتكريم :

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » ..

وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد ليحمل هذه الأمانة الكبرى ، وليكون مستودع نور الله وموضع تلقي فضله ، والمركز الذي تتصل فيه السماء بالأرض .. إن اختيار الله هذا الفضل لا يعدله فضل . فضل عظيم يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته ؛ ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد . والله يذكر الجماعة المسلمة في المدينة ، والذين يأتون بعدها الموصولين بها والذين لم يلحقوا بها . يذكرهم هذا الفضل في اختيارهم لهذه الأمانة ، ولبعث الرسول فيهم يتلو عليهم الكتاب ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . ويترك للآتين في أطواء الزمان ذلك الرصيد الضخم من الزاد الإلهي ، ومن الأمثلة الواقعية في حياة الجماعة الأولى . يذكرهم هذا الفضل العظيم الذي تصغر إلى جانبه جميع القيم ، وجميع النعم ؛ كما تصغر إلى جانبه جميع التضحيات والآلام ..

* * *

بعد ذلك يذكر ما يفيد أن اليهود قد انتهى دورهم في حمل أمانة الله ؛ فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التي لا تحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل :
« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً . بثس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ! والله لا يهدي القوم الظالمين » ..

فبنو إسرائيل حملوا التوراة ، وكلفوا أمانة العقيدة والشرعة .. « ثم لم يحملوها » .. فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه ، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع . ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم - وكما هي في حقيقتها - لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة ، ولا أنهم فقهوا حقيقتها ، ولا أنهم عملوا بها . ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام ، وليس له منها إلا ثقلها . فهو ليس صاحبها . وليس شريكاً في الغاية منها !

وهي صورة زرية بائسة ، ومثل سيئ شائن ، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة « بثس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » ..

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .. كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها . والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة ، والذين يعيشون في هذا الزمان ، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب ، وهم لا ينهضون بما فيها .. أولئك كلهم ، كالحمار يحمل أسفاراً . وهم كثيرون كثيرون ! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس . إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب .

* * *

وكان اليهود يزعمون - كما يزعمون حتى اليوم - أنهم شعب الله المختار ، وأنهم هم أولياؤه من دون الناس وأن غيرهم هم « الجويم » أو الأميون أو الأميون . وأنهم من ثم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين : « قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » .. إلى آخر هذه الدعاوى التي تفتري الكذب على الله بلا دليل ! فهنا دعوة لهم إلى المباهلة التي تكررت معهم ومع النصارى ومع المشركين :

« قل : يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل : إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » ..

والمباهلة معناها وقوف الفريقين المتنازعين وجهاً لوجه ، ودعاؤهما معاً إلى الله أن ينكل بالمبطل منهما .. وقد خاف كل من دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها ، ولم يقبلوا التحدي فيها . مما يدل على أنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحقيقة هذا الدين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يزيد الزرقى ، حدثنا أبو يزيد ، حدثنا فرات ، عن عبد الكريم ابن مالك الجزري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال أبو جهل - لعنه الله - إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً . ولو أن اليهود تمنوا الموت لما تواروا وأوامقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالا »^١ .

وقد لا تكون هذه مباهلة ولكن مجرد تحد لهم ، بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس . فلا يخيفهم إذن من الموت ، ويجعلهم أجبن خلق الله ؟ وهم حين يموتون ينالون ما عند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون ؟ ! ثم عقب على هذا التحدي بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يدعون ، وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمثون إليه ، وما يرجون الثواب والقرى عليه ، إنما قدموا المعصية التي تخيفهم من الموت وما وراءه . والذي لم يقدم الزاد يحفل من ارتياد الطريق :

« ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ..

وفي نهاية الجولة يقرر حقيقة الموت وما بعده ، ويكشف لهم عن قلة الجدوى في فرارهم من الموت ، فهو حتم لا مهرب منه ، وما بعده من رجعة إلى الله ، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه :

« قل : إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم . ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » ..

وهي لفظة من اللفظات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين . تقرر في الأخلاص حقيقة ينساها الناس ، وهي تلاحقهم أينما كانوا .. فهذه الحياة إلى انتهاء . والبعد عن الله فيها ينتهي للرجعة إليه ، فلا ملجأ منه إلا إليه . والحساب والجزاء بعد الرجعة كائن لا محالة . فلا مهرب ولا فكاك .

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعاً : « مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدئن ، فجاء يسعى ، حتى إذا أعيا وأنهر دخل جحره ،

(١) ورواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم .

فقلت له الأرض : يا ثعلب ! دُني . فخرج له حصاص . فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات ..
وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء ..

* * *

والآن يجيء المقطع الأخير في السورة خاصاً بتعليم يتعلق بالجمعة ، بمناسبة ذلك الحادث الذي وقع ربما أكثر من مرة ، لأن الصيغة تفيد التكرار :

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون .
« وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً . قل : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين ..

وصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة ، التي لا تصح إلا جماعة .. وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكروهم بالله . وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد وفي العبادة الواحدة ؛ وكلاهما عبادة^١ . وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية التي تحدثنا عنها في ظلال سورة الصف . وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب .

جاء في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل .. »

وروى أصحاب السنة الأربعة من حديث أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : من غسل واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلبغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها ..

وروى الإمام أحمد من حديث كعب بن مالك عن أبي أيوب الأنصاري قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج يأتي المسجد ، فركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحداً ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى .. »

والآية الأولى في هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع - وسائر نشاط المعاش - بمجرد سماعهم للأذان :
« يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع .. »

وترغبهم في هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول في الذكر في هذا الوقت :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .. »

مما يوحي بأن الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضي هذا الترغيب والتحبيب . وهو في الوقت ذاته تعليم دائم للنفوس ؛ فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض ، لينخلو إلى ربه ، ويتجرد لذكره ، ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى ، ويملاً قلبه وصدره

(١) يراجع فصل العبادات الإسلامية في كتاب : « في النفس والمجتمع » لمحمد قطب . « دار الشروق »

من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شذاه !
ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ..
وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي . التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب . وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر . وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة . ولكنه - مع هذا - لا بد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد المحض . كما توحى هاتان الآيتان .

وكان عراك بن مالك - رضي الله عنه - إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إني أحببت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني . فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين » ..
(رواه ابن أبي حاتم) .. وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جداً ، في بساطة تامة ، فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك !

ولعل هذا الإدراك الجاد الصريح البسيط هو الذي ارتقى بتلك المجموعة إلى مستواها الذي بلغت إليه ، مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية . مما تصوره الآية الأخيرة في السورة :
« وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » . قل : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين » ..

عن جابر - رضي الله عنه - قال : « بينا نحن نصلي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ أقبلت غير تحمل طعاماً ، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا اثنا عشر رجلاً ، منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . فنزلت : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً »^١ ..
وفي الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة . وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله « والله خير الرازقين » ..

وهذا الحادث كما أسلفنا يكشف عن مدى الجهد الذي بذل في التربية وبناء النفوس حتى انتهت إلى إنشاء تلك الجماعة الفريدة في التاريخ . ويمنح القائمين على دعوة الله في كل زمان رصيماً من الصبر على ما يجدونه من ضعف ونقص وتحلف وتعثر في الطريق . فهذه هي النفس البشرية بخيرها وشرها . وهي قابلة أن تصعد مراقي العقيدة والتطهر والتزكي بلا حدود ، مع الصبر والفهم والإدراك والثبات والمثابرة ، وعدم النكوص من منتصف الطريق . والله المستعان .

* * *

(١) رواه الشيخان والترمذي .

(٦٣) سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ مِلَّةً
وَأَيَّاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا
تَسْمِعَ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَانَتْهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُءٌ وَهُمْ وَأَبْصَرُ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ
الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ ۚ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَنْتَ رَبِّي إِلَى
أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص « المنافقون » الدال على موضوعها .. ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين ، ووصف أحوالهم ومكائدهم . فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحاً أو تصريحاً . ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين ، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم .

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب .

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين ، ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله ، والغفلة عن ذكره اشتغالاً بالأموال والأولاد ، والتقاعد عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات .

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة ، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم تنقطع في أي وقت تقريباً ، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين .. هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها ؛ وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدراً كبيراً ؛ وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة ، وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين .

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيد في كتاب : « سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم » لمؤلفه الأستاذ « محمد عزة دروزة » نقتطف منه فقرات كاشفة :

« وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة ، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتمتلقهم وتتزلف إليهم في الظاهر ، وتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام . ولقد كان أهل مكة وزعماءها خاصة يناوئون النبي جهاراً ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ما تحرز أو تحفظ ؛ وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولاً ، ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ؛ وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب ...

« أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جداً . فالنبي - صلى الله عليه وسلم - استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصاراً أقوياء من الأوس والخزرج ؛ ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريباً بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام . ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به - إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد ، لأنهم رأوا في قدوم النبي حداً لنفوذهم وسلطانهم - موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون في النبي رسول الله ، وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ، فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ، ويحملهم ذلك على مناوأة النبي - صلى الله عليه وسلم - ودعوته ونفوذه - أن يظهروا علناً في نزعهم

وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام ، والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم . وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه ، وإذا كانوا وقفوا أحياناً مواقف علنية فيها كيد ودس ، وعليها طابع من النفاق بارز ، فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي والمسلمين ، والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ؛ ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي - صلى الله عليه وسلم - والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقراً . وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضايح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمحرون ، وتدمغهم بشروهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

« ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية ، حتى لكأنه نضال قوي ، يذكر بما كان من نضال بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وزعماء مكة ، وإن اختلفت الأدوار والنتائج ؛ إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذا لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ، وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسباً عكسياً مع ما كان من تزايد قوة النبي - صلى الله عليه وسلم - واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

« ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون ، وخاصة في أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوىاء نسبياً بعضبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخاً كافياً ؛ وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان محوطاً بالمشركين الجاحدين من كل جانب ، وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود في المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطهروا به ، ثم جاهره بالكفر والعداء والمكر ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى ، والتضامن في موقف المعارضة والكيد ، حتى ليتمكن القول : إن المنافقين لم يقووا ويشبوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعصيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتوافق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم ، وكفاه شرهم^١ .

* * *

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر ، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - هو رسول الله . وحلفهم كذباً ليصدقهم المسلمون ، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم ، ويخدعون المسلمين فيهم :

« إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله - والله يعلم إنك لرسوله - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون » ..

(١) يراجع الفصل بتمامه من ص ١٧٦ إلى ٢١٦ بالجزء الثاني من الكتاب .

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان ، لا يقصدون بها وجه الحق ، إنما يقولونها للتقية ، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين . فهم كاذبون في أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة ، فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها ، ويداروا أنفسهم بقولها . ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة : « والله يعلم إنك لرسوله » .. « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه . فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين . ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع شهادتهم وهو الرسالة . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقاً ولا يشهدون بها خالصي الضمير !

« اتخذوا أيمانهم جنة » .. وهي توحى بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم ، أو عرف عنهم كيد أو تدبير ، أو نقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين . كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ، ليواصلوا كيدهم ودهسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم . « فصدوا عن سبيل الله » .. صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » .. وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل ؟

ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة ، وأيمان مكذوبة خادعة ، وصد عن سبيل الله وسوء عمل .. يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان ، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام :
« ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون » ..

فهم عرفوا الإيمان إذن ، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر . وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه ، أو تذوق ، أو حياة . وإلا فمن ذا الذي يدوق ويعرف ، ويطلع على التصور الإيماني للوجود ، وعلى التدوق الإيماني للحياة ، ويتنفس في جو الإيمان الذكي ، ويحيا في نور الإيمان الوضيء ، ويتفيا ظلال الإيمان الندية .. ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجذب الكنود ؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود ، الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد ! « فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » ..

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة ؛ تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف المسوخ المطموس من الناس ، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفرع والحقن والكنود . بل تنصبهم تمثالاً وهدفاً للسخرية في معرض الوجود :

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة . يحسبون كل صبيحة عليهم . هم العدو فاحذرهم . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ » ..

فهم أجسام تعجب . لا أناسي تتجاوب ! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون .. فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة .. « تسمع لقولهم كأنهم خشب » .. ولكنها ليست خشباً فحسب . إنما هي « خشب مسندة » .. لا حركة لها ، ملطوعة بجانب الجدار !

هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح ! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفرع الدائم والاهتزاز الدائم :

« يحسبون كل صبيحة عليهم » ..

فهم يعرفون أنهم منافقون مستترون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملتق والالتواء . وهم يخشون في كل

لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف . والتعبير يرسمهم أبداً متلفتين حوالهم ؛ يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف ، يحسبونهم يطلبهم ، وقد عرف حقيقة أمرهم !!
وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان .. إذا هم كالقصبه المرتجفة في مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال !
وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين :
« هم العدو فاحذرهم » ..

هم العدو الحقيقي . العدو الكامن داخل المعسكر ، المختبئ في الصف . وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح . « فاحذرهم » .. ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يؤمر هنا بقتلهم ، فأخذهم بنخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم (كما سيجيء نموذج من هذه المعاملة بعد قليل) ..
« قاتلهم الله أنى يؤفكون » ..

فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا . والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء ، وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه .. وهذا هو الذي كان في نهاية المطاف .

* * *

ويستطرد السياق في وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم ، وتبنيهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكذبهم عند المواجهة .. وهي مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون :
« وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون : لا تفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . والله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . والله العزة لرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » ..
وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول :

وفصل ابن إسحاق هذا في حديثه عن غزوة بني المصطلق سنة ست على المريسيع .. ماء لهم .. فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ذلك الماء - بعد الغزوة - وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون ابن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه . يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث . فقال : أوقد فعلوها ؟ قد نافرنا وكاثرونا في بلادنا . والله ما أعدنا وجلايب قريش^١ إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم . فثشي به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذلك عند فراغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عدوه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال :

(١) الجلايب : اسم كان يلقب به المنافقون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المهاجرين .

مر به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل » . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه - فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفاً عظيماً . فقال من حضر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل . حذباً على ابن أبي بن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسار لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ » قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال « عبد الله بن أبي » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعرس منها الأذل ؟ » قال : فأنت يا رسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارفق به . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً !

ثم مشى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبي .

قال ابن إسحاق : ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، في ابن أبي ومن كان على مثل أمره . فلما نزلت أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : « هذا الذي أوفى الله بأذنه » .. وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق . فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه . فإن كنت لا بد فاعلاً ففرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بل ترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي : اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته » .. قال : قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعظم بركة من أمري ..

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك ! فقال : مالك ؟ ويلك ! فقال : والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه العزيز وأنت الذليل ! فلما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان إنما يسير ساقاً ، فشكا إليه

عبد الله بن أبي ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أما إذ أذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجز الآن ..^١

* * *

وننظر مرة إلى الأحداث ، ومرة إلى الرجال ، ومرة إلى النص القرآني ، فنجدنا مع السيرة ، ومع المنهج التربوي الإلهي ، ومع قدر الله العجيب في تصريف الأمور ..

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون ؛ ويعيشون فيه - في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قرابة عشر سنوات . والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يخرجهم من الصف ، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته . وإن كان يعرفهم في لحن القول ، بالالتواء والمداورة . ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات . ذلك كي لا يكل الله قلوب الناس للناس . فالقلوب له وحده ، وهو الذي يعلم ما فيها ويحاسب عليه ، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر ؛ كي لا يأخذوا الناس بالظنة ، وكي لا يقضوا في أمورهم بالفراسة ! وحتى حينما عرف الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته ، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه . إنما عرفهم وعرف بهم واحداً فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - ولم يشع ذلك بين المسلمين . حتى إن عمر - رضي الله عنه - كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يسمه له من المنافقين ! وكان حذيفة يقول له : يا عمر لست منهم . ولا يزيد ! وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر ألا يصلي على أحد منهم مات أبداً . فكان أصحابه يعرفون عندما يرون الرسول لا يصلي على ميت . فلما قبض - صلى الله عليه وسلم - كان حذيفة لا يصلي على من عرف أنه منهم . وكان عمر لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر . فإن رأى حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئاً !

وهكذا كانت تجري الأحداث - كما يرسمها القدر - لحكمتها ولغايتها ، للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب .

وهذا الحادث الذي نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة ..

هذا عبد الله بن أبي بن سلول . يعيش بين المسلمين . قريباً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول . ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان ، لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة . وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير ، تقف دونه إحنة في صدره أن لم يكن ملكاً على الأوس والخزرج ، بسبب مقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالإسلام إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى . الذي تواجهه دلائله من كل جانب . وهو يعيش في فيض الإسلام ومده في يثرب !

وهذا ابنه عبد الله - رضي الله عنه وأرضاه - نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع . يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه . ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف . ويسمع أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة ، يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة . إنه يحب الإسلام ، ويحب طاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويجب أن ينفذ أمره ولو في أبيه . ولكنه

(١) مما يلاحظ أن حديث الإفك المشهور قد وقع في أعقاب تلك الغزوة وكان الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول !

لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه . وهو يخشى أن تخونه نفسه ، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية ، وهتاف الثأر .. وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلدجات قلبه ، ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه . فيطلب منه إن كان لا بد فاعلاً أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لا بد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كي لا يتولى ذلك غيره ، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض . فيقتله . فيقتل مؤمناً بكافر . فيدخل النار ..

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر في هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان في قلب إنسان ، وهو يعرض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية - أن يقتل أباه - وهو صادق النية فيما يعرض . يتقي به ما هو أكبر في نظره وأشق .. وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر ، فيدخل النار .. وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول : « فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني » . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ؛ لا بأن يرد أمره أو يغيره - فالأمر مطاع والإشارة نافذة - ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه !

والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المحرجة ، فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة : « بل ترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » .. ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رأيه : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ » .

ثم تصرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم .. وأمره بالسير في غير أوان ، ومتابعة السير حتى الإعياء ، ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين : يا للأنصار ! يا للمهاجرين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول ، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان .. وحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أسيد بن حضير ، وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة ، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة في قومه حتى بعد الإسلام !

وأخيراً نفق أمام المشهد الرائع الأخير . مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبي . وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا بدعه يدخل . تصديقاً لمقاله هو : « ليخرجن الأعز منها الأذل » . ليعلم أن رسول الله هو الأعز . وأنه هو الأذل . ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيأذن له . فيدخلها بإذنه . ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . في نفس الواقعة . وفي ذات الأوان .

ألا إنها لقمة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة ، وهم بعد بشر ، بهم ضعف البشر ، وفيهم عواطف البشر ، وخوارج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة ، حين يدركها الناس على حقيقتها ، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق .

* * *

ثم نعيش في ظلال النصوص القرآنية التي تضمنت تلك الأحداث :
« وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون » ..

فهم يفعلون الفعلة ، ويطلقون القولة . فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جنبوا وتحاذلوا وراحوا يقسمون بالإيمان يتخذونها جنة . فإذا قال لهم قائل : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، وهم في أمن من مواجهته ، لووا رؤوسهم ترفعاً واستكباراً ! وهذه وتلك سمتان متلازمتان في النفس المنافقة . وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام . ولكنهم هم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة ؛ فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمان من المواجهة . حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان !

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما قضاه الله في شأنهم على كل حال . وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله :

« سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » ..

ويحكي طرفاً من فسقهم ، الذي استوجب قضاء الله فيهم :

« هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ..

وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة . وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصلون بها على اختلاف الزمان والمكان ، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين .

إنها خطة قریش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويسلموه للمشركين !

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه تحت وطأة الضيق والجوع !

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة !

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام ، بالحصار والتجويع ومحاوله سد أسباب العمل والارتزاق ..

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان .. ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية :

« والله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون » ..

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين ، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم . فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين !

وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللثيمة والوسيلة الخسيسة ، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم . ويطمئنهم إلى أن خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع . والذي يعطي أعداءه لا ينسى أوليائه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيراً ولا قليلاً لو قطع عنهم الأرزاق ! وهو أكرم أن يكل عباده - ولو كانوا أعداءه - إلى ما يعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء !

ثم قولتهم الأخيرة :

« يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ..

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبي ! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز !

« والله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » ..

ويضم الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفي عليهم من عزته ، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ! وأي تكريم بعد أن يوقف الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين معه إلى جواره . ويقول : ها نحن أولاء ! هذا لواء الأعزاء . وهذا هو الصف العزيز !

وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن . العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التي لا تهون ولا تن ، ولا تنخي ولا تلين . ولا ترايل القلب المؤمن في أخرج اللحظات إلا أن يتضعض فيه الإيمان . فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة ..
« ولكن المنافقين لا يعلمون » ..

وكيف يعلمون وهم لا يتدققون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل ؟

* * *

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجعل عزتهم من عزته بوجه النداء الأخير في السورة ، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم ، ويرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد ، فلا يدعوها تلهمهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء :

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ، فيقول : رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، والله خير بما تعملون » ..

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ، ويدرك غاية وجوده ، ويشعر أن له هدفاً أعلى يليق بالخلق الذي نفخ الله فيه من روحه ، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية . وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا تلهمه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان . ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر ، ويلفه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال « فأولئك هم الخاسرون » .. وأول ما يخسرونه هو هذه السمة . سمة الإنسان . فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنساناً . ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء . مهما يملك من مال ومن أولاد .

ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة ..

« وأنفقوا مما رزقناكم » .. فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم . فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق .

« من قبل أن يأتي أحدكم الموت ... » ..

فيترك كل شيء وراءه لغيره ، وينظر فلا يجد أنه قدم شيئاً لنفسه ، وهذا أحق الحمق وأخسر الخسران .

ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين !

وأنى له هذا ؟ : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » ؟

وأنى له ما يتقدم به ؟ « والله خير بما تعملون » ؟
إنها اللمسات المتنوعة في الآية الواحدة . في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين .
ولواذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين . . فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان ، وألا يغفلوا
عن ذكر الله . وهو مصدر الأمان . .
وهكذا يري الله المسلمين بهذا القرآن الكريم . .

* * *

(٦٤) سُورَةُ النَّجْمِ مِلِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنفَخَ فِيكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَدَّأَوْا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُنَا بِمَا نَكْفُرُ ۚ فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا ۚ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۚ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۚ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَتَأَيَّابُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأُولَدِكُمْ عُدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِنْ

تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها ، وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدني يتبين إلا في فقراتها الأخيرة .

والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء : « يا أيها الذين آمنوا » .. تستهدف بناء أسس العقيدة ، وإنشاء التصور الإسلامي في القلوب بأسلوب السور المكية التي تواجه الكفار المشركين ابتداء ، وتخطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته . ثم هي تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم ؛ وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث ، وتوكيده توكيداً شديداً ، يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم في السور المدنية ، لحثهم على الإنفاق ، وتحذيرهم فتنه الأموال والأولاد . وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها . كما أن فيها ما قد يكون تعزية عن مصاب أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين ، ورد الأمر فيها إلى قدر الله ، وتثبيت هذا التصور .. وهو ما يتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات .

ولقد وردت روايات أن السورة مكية ، ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها . وكدت أميل إلى اعتبارها مكية تأثراً بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها . ولكني أبقيت اعتبارها مدنية - مع الرأي الراجح فيها - لأنه ليس ما يمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطاباً للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة . كما أنه ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة ، وإيضاح التصور الإسلامي ، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي .. والله أعلم ..

* * *

والمقطع الأول في السورة يستهدف بناء التصور الإيماني الكوني ، وعرض حقيقة الصلة بين الخالق - سبحانه - وهذا الكون الذي خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنی وأثرها في الكون وفي الحياة الإنسانية : « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير . يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون . والله عليم بذات الصدور » .. وهذا التصور الكوني الإيماني هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون في تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسائل

الإلهية كلها بوحداية الله ، وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق ، ورعايته لكل كائن في الوجود .. لا نشك في هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسالات كلها . ولا عبرة بما نجده في الكتب المفتراة والمحرفة ؛ أو فيما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لا يؤمنون بالقرآن كله أو بعضه . إنما جاء الانحراف عن العقيدة الإيمانية من أتباعها ، فبدأ أنها لم تأت بالتوحيد الخالص ، أو لم تأت بهيمنة الله واتصاله بكل كائن . فهذا من التحريف الطارئ لا من أصل الديانة . فدين الله واحد منذ أولى الرسالات إلى خاتمة الرسالات . ويستحيل أن ينزل الله ديناً يخالف هذه القواعد ، كما يزعم الزاعمون بناء على ما يجدونه في كتب مفتراة أو محرقة باسم الدين ! ولكن تقرير هذه الحقيقة لا ينافي أن التصور الإسلامي عن الذات الإلهية ، وصفاتها العلوية ، وآثار هذه الصفات في الكون وفي الحياة الإنسانية .. أن هذا التصور أوسع وأدق وأكمل من كل تصور سابق في الديانات الإلهية .. وهذا متفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة . ومع الرشد البشري الذي جاءت هذه الرسالة لتخاطبه وتوجهه ؛ وتنشئ فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره .

ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشري - بمقدار ما يطيق - حقيقة الألوهية وعظمتها ، ويشعر بالقدرة الإلهية ويراه في آثارها المشهودة في الكون ، ويحسها في ذوات الأنفس بآثارها المشهودة والمدركة ؛ ويعيش في مجال هذه القدرة وبين آثارها التي لا تغيب عن الحس والعقل والإلهام . ويراه محيطه بكل شيء ، مهيمنة على كل شيء ، مدبرة لكل شيء ، حافظة لكل شيء ، لا يند عنها شيء . سواء في ذلك الكبير والصغير والجليل والحقير .

ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشري في حساسية مرفهة ، وتوفز دائم ، وخشبة وارتقاب ، وطمع ورجاء ؛ وأن يمضي في الحياة معلقاً في كل حركة وكل خالجة بالله ، شاعراً بقدرته وهيمته ، شاعراً بعلمه ورقابته ، شاعراً بقهره وجبروته ، شاعراً برحمته وفضله ، شاعراً بقربه منه في كل حال . وأخيراً فإن من شأنه أن يحس بالوجود كله متجهاً إلى خالقه فيتجه معه ، مسبحاً بحمد ربه فيشاركه تسبيحه ، مدبراً بأمره وحكمته فيخضع لشرعيته وقانونه .. ومن ثم فهو تصور إيماني كوني بهذا المعنى ، وبمعان أخرى كثيرة تتجلى في المواضع المتعددة في القرآن التي تضمنت عرض جوانب من هذا التصور الإيماني الشامل الكامل المحيط الدقيق . وأقرب مثل منها ما ورد في ختام سورة الحشر ، في هذا الجزء^١ .

* * *

« يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض ، له الملك وله الحمد » ..

فكل ما في السماوات والأرض متوجه إلى ربه ، مسبح بحمده ؛ وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شيء في هذا الوجود مؤمنة ، والله مالك كل شيء . وكل شيء شاعر بهذه الحقيقة . والله محمود بذاته ممجد من مخلوقاته . فإذا وقف الإنسان وحده في خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح ، متمرداً عاصياً ، لا يسبح لله ، ولا يتجه إلى مولاه ، فإنه يكون شاذاً بارز الشذوذ ، كما يكون في موقف المنبوذ من كل ما في الوجود . « وهو على كل شيء قدير » ..

فهذه القدرة المطلقة ، التي لا تتقيد بقيد . وهي حقيقة يطبعها القرآن في القلب المؤمن فيعرفها ويتأثر بمدلولها ، ويعلم أنه حين يركن إلى ربه فإنما يركن إلى قدرة تفعل ما تشاء ، وتحقق ما تريد . بلا حدود ولا قيود .

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان .. بحث أرجو توفيق الله لإخراجه إلى حيز الوجود .

وهذا التصور لقدرة الله وتسبيح كل شيء له ، وتوجه الوجود إليه بالحمد .. هو طرف من ذلك التصور الإيماني الكبير .

واللمسة الثانية في صميم القلب الإنساني ، الذي يقف في خضم الوجود المؤمن المسيح بحمد الله . مؤمناً تارة وكافراً تارة . وهو وحده الذي يقف هذا الموقف الفريد .
« هو الذي خلقكم فنكم كافر ومنكم مؤمن » ..

فمن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان ؛ وأودع إمكان الاتجاه إلى الكفر وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ؛ وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله ؛ ونيطت به أمانة الإيمان بحكم هذا الاستعداد . وهي أمانة ضخمة وتبعة هائلة . ولكن الله كرم هذا المخلوق فأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار ؛ وأمهه بعد ذلك بالميزان الذي يزن به عمله ويقيس به اتجاهه . وهو الدين الذي نزل على رسل منه . فأعانه بهذا كله على حمل هذه الأمانة . ولم يظلمه شيئاً .
« والله بما تعملون بصير » ..

فهو رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل ، بصير بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير .. وهذا التصور لحقيقة الإنسان وموقفه هو طرف من التصور الإسلامي الواضح المستقيم لموقف الإنسان في هذا الوجود ، واستعداداته وتبعاته أمام خالق الوجود .

واللمسة الثالثة تشير إلى الحق الأصيل الكامن في طبيعة الوجود ، الذي تقوم به السماوات والأرض ، كما تشير إلى صنعة الله المبدعة في كيان المخلوق الإنساني . وتقرر رجعة الجميع إليه في نهاية المطاف :
« خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير » ..

وصدر هذا النص : « خلق السماوات والأرض بالحق » .. يقر في شعور المؤمن أن الحق أصيل في كيان هذا الكون ، ليس عارضاً وليس نافلة ؛ فبناء الكون قام على هذا الأساس . والذي يقرر هذه الحقيقة هو الله الذي خلق السماوات والأرض ، والذي يعلم على أي أساس قامتا . واستقرار هذه الحقيقة في الحس يمنحه الطمأنينة والثقة في الحق الذي يقوم عليه دينه ، ويقوم عليه الوجود من حوله ؛ فهو لا بد ظاهر ، ولا بد باق ، ولا بد مستقر في النهاية بعد زبد الباطل !

والحقيقة الثانية : « وصوركم فأحسن صوركم » .. تشعر الإنسان بكرامته على الله ، وبفضل الله عليه في تحسين صورته : صورته الخلقية وصورته الشعورية . فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجثائي ؛ كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة . ومن ثم وكلت إليه خلافة الأرض ، وأقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه !

ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان ، أو إلى أي جهاز من أجهزته ، تثبت تلك الحقيقة وتجسمها : « وصوركم فأحسن صوركم » .. وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال . ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل . ولكن التصميم في ذاته جميل وكامل الصنعة ، وواف بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء .

« وإليه المصير » .. مصير كل شيء وكل أمر وكل خلق .. مصير هذا الكون ومصير هذا الإنسان . فمن إرادته انبثق ، وإليه - سبحانه - يعود . ومنه المنشأ وإليه المصير . وهو الأول والآخر . المحيط بكل شيء من

طريقه : مبدئه ونهايته . وهو - سبحانه - غير محدود !

واللمسة الرابعة في هذا المقطع هي تصوير العلم الإلهي المحيط بكل شيء ، المطلع على سر الإنسان وعلايته ، وعلى ما هو أخفى من السر ، من ذوات الصدور الملازمة للصدور :

« يعلم ما في السماوات والأرض : ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور » ..

واستقرار هذه الحقيقة في القلب المؤمن يفيد المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته . ويمنحه جانباً من التصور الإيماني الكوني . ويؤثر في مشاعره واتجاهاته ؛ فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائبة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

وإن آيات ثلاثاً كهذه لكافية وحدها ليعيش بها الإنسان مدركاً لحقيقة وجوده ، ووجود الكون كله ، وصلته بخالقه ، وأدبه مع ربه ، وخشيته وتقواه ، في كل حركة وكل اتجاه ..

* * *

والمقطع الثاني في السورة يذكر بمصير الغابرين من المكذبين بالرسول والبيئات ، المعترضين على بشرية الرسل . كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويكفرون بما جاءهم به من البيئات :

« ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ؟ ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهدونا ؟ فكفروا وتولوا ، واستغنى الله ، والله غني حميد » ..

والخطاب هنا للمشركين - غالباً - وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة . والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ما جاءهم من نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وقد يكون للفت أنظارهم إلى هذا النبا الذي يقصه عليهم . وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين . كعاد وثمود وقرى لوط . وهم يمرون عليها في شبه الجزيرة ، في رحلاتهم للشمال والجنوب .

ويضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم في الدنيا ما ينتظرهم هنالك في الآخرة : « ولهم عذاب أليم » .. ثم يكشف عن السبب الذي استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا : أبشر يهدونا ؟ » .. وهو الاعتراض ذاته الذي يعترضه المشركون على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو اعتراض فج ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة ، وكونها منهجاً إلهياً للبشر ، فلا بد أن تتمثل واقعياً في بشر ، يحيا بها ، ويكون بشخصه ترجماناً لها ؛ فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ما يستطيعون . ولا ينزل هو عنهم بجنسه ، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم ، وفي حياتهم ومعاشهم . وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها ، بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون . ففي الإنسان تلك النفخة من روح الله ، وهي تهيئه لاستقبال الرسالة من الله ، وأدائها كاملة كما تلقاها من الملائكة الأعلى . وهي كرامة للجنس البشري كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله ، حين يحقق في ذاته حقيقة النفخة من روح الله ! وناشئ في النهاية من التعنت والاستكبار الكاذب عن اتباع رسول من البشر . كأن في هذا غضاً من قيمة هؤلاء الجهال المتكبرين ! فجاءت في عرفهم أن يتبعوا رسولاً من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة . أما أن يتبعوا واحداً منهم فهي في نظرهم حطة وقلة قيمة !

ومن ثم كفروا وتولوا معرضين عن الرسل وما معهم من البيئات ، ووقفت في صدورهم هذه الكبرياء وذلك

الجهل . فاختاروا لأنفسهم الشرك والكفر ..

« واستغنى الله . والله غني حميد » .. استغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم .. وما هو - سبحانه - بمحتاج إلى شيء منهم ولا من غيرهم ، ولا بمحتاج أصلاً : « والله غني حميد » .
فهذا نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وهذا سبب ما ذاقوا وما ينتظروهم . فكيف يكذب بعد هذا النبا مكذبون جدد ؟ أليقوا مصيراً كهذا المصير ؟

* * *

والمقطع الثالث بقية للمقطع الثاني يحكي تكذيب الذين كفروا بالبعث - وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يواجههم بالدعوة - وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث مؤكداً وثيقاً . وتصوير لمشهد القيامة ومصير المكذبين والمصدقين فيه ؛ ودعوة لهم إلى الإيمان والطاعة ورد كل شيء لله فيما يقع لهم في الحياة .

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربي لتبعثن ، ثم لئنئتون بما عملتم . وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا . والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ، ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير . ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

ومنذ البدء يسمي مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعماً ، فيقضي بكذبه من أول لفظ في حكايته . ثم يوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تأكيد أمر البعث بأوثق تأكيد ، وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه تأكيد : « قل : بلى وربي لتبعثن » .. « ثم لئنئتون بما عملتم » .. فليس شيء منه بمتروك . والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ! « وذلك على الله يسير » .. فهو يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شيء قدير . كما جاء في مطلع السورة تمهيداً لهذا التقرير . وفي ظل هذا التأكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله مع رسوله . وهو هذا القرآن . وهو هذا الدين الذي يبشر به القرآن . وهو نور في حقيقته بما أنه من عند الله . والله نور السماوات والأرض . وهو نور في آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته . ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بما يشعرون أنهم مكشوفون لعين الله لا يخفى عليه منهم شيء : « والله بما تعملون خبير » ..

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذي أكده لهم أوثق تأكيد :

« يوم يجمعكم ليوم الجمع : ذلك يوم التغابن » ..

فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق في جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله . ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أبي ذر رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . أطت السماء وحق لها أن تيط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً . والله

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى . لوددت أني شجرة تعضد^١ ..

والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك . هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدوداً . والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباء الطائرة في الفضاء ! فهل هذا يقرب شيئاً للتصور البشري عن عدد الملائكة ؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع !

وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغبن . وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيرورتهم إلى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان . وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء ، وليغبن كل فريق مسابقه ! ففاز فيه المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك ! يفسره ما بعده :

« ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير » ..
وقبل أن يكمل ندائه إليهم بالإيمان يقرر قاعدة من قواعد التصور الإيماني في القدر ، وفي أثر الإيمان بالله في هداية القلب :

« ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم » ..
ولعل مناسبة ذكر هذه الحقيقة هنا هي مجرد بيانها في صدد عرض حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه في هذا المقطع . فهو الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله ، ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو باذن الله . وهي حقيقة لا يكون إيمان بغيرها . فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها . كما يجوز أن تكون هناك مناسبة حاضرة في واقع الحال عند نزول هذه السورة . أو هذه الآية من السورة ، فيما كان يقع بين المؤمنين والمشركين من وقائع .

وعلى أية حال فهذا جانب ضخم من التصور الإيماني الذي ينشئه الإسلام في ضمير المؤمن . فيحس يد الله في كل حدث ، ويرى يد الله في كل حركة ، ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء . يصبر للأولى ويشكر للثانية . وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا ، فيشكر في السراء وفي الضراء ؛ إذ يرى في الضراء كما في السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات ، أو بالخير على كل حال .

وفي الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ! لا يقضي الله قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له . وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » ..

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » ..

وقد فسرنا بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة . وعن ابن عباس يعني يهدي قلبه هداية مطلقة . ويفتحه على الحقيقة الدنية المكنونة . ويوصله بأصل الأشياء والأحداث ، فيرى هناك منشأها وغايتها . ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح . ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغني عن الرؤية الجزئية المحفوفة بالخطأ والقصور .

(١) أخرجه الترمذي .

ومن ثم يكون التعقيب عليها :

« والله بكل شيء عليم » ..

فهي هداية إلى شيء من علم الله ، يمنحه لمن يهديه ، حين يصح إيمانه فيستحق إزاحة الحجب ، وكشف الأسرار .. بمقدار ..

ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول :

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » ..

وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا . وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ . فإذا بلغ فقد أدى الأمانة ، ونهض بالواجب ، وأقام الحجة . وبقي ما ينتظرهم هم من المعصية والتولي ، مما ذكروا به منذ قليل .

ثم يختم هذا المقطع بتقرير حقيقة الوحدة التي ينكرونها ويكذبونها ، ويقرر شأن المؤمنين بالله في تعاملهم مع الله :

« الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

وحقيقة التوحيد هي أساس التصور الإيماني كله . ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده . فهذا هو أثر التصور الإيماني في القلوب .

وبهذه الآية يدخل السياق في خطاب المؤمنين . فهي وصلة بين ما مضى من السورة وما يجيء .

* * *

وفي النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ويدعوهم إلى تقوى الله ، والسمع والطاعة والإنفاق ، كما يحذرهم شح الأنفس ، ويعدهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح . ويذكرهم في الختام بعلم الله للحاضر والغائب ، وقدرته وغلبته ، مع خبرته وحكمته :

« يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ، وإن تغفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حلیم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » ..

وقد ورد عن ابن عباس - رضي الله عنه - في الآية الأولى من هذا السياق وقد سأله عنها رجل فقال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه . فلما أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبوه ، فأنزل الله هذه الآية : « وإن تغفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .. وهكذا رواه الترمذي بإسناد آخر وقال : حسن صحيح . وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس .

ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمداً . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معاً : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » .. والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً .. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية . ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء . فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتعاب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه

فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله ! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير ، وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجته وولده . فيبخل ويحزن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدواً له ، لأنهم صدوه عن الخير ، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا . كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونهم من النهوض بواجبه ، اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله .. وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات .. وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن .

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة ، التحذير من الله ، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات .

ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنه الأموال والأولاد . وكلمة فتنة تحتمل معنيين : الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم ، فانتبهوا لهذا ، وحاذروا وكونوا أبدأ يقظين لتنجحوا في الابتلاء ، وتخلصوا وتتجددوا لله . كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب !

والثاني أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية ، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله .

وكلا المعنيين قريب من قريب .

وقد روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله بن بريدة : سمعت أبي بريدة يقول : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب ، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المنبر فحملهما ، فوضعهما بين يديه . ثم قال : « صدق الله ورسوله . إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » .. ورواه أهل السنة من حديث ابن واقد . فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذان ابنا بنته .. وإنه لأمر إذن خطير . وخطر . وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس ، وأودعها هذه المشاعر ، لتكفكف نفسها عن التماذي والإفراط ، وهي تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو ، وتؤدي بها إلى ما تؤدي إليه مكاييد الأعداء !

ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد ، والعداوة المستسرة في بعض الأبناء والأزواج . فهذه فتنة « والله عنده أجر عظيم » ..

ويهدف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة ، وبالسَّمْع والطاعة :

« فاتقوا الله ما استطعتم - واسمعوا وأطيعوا » ..

وفي هذا القيد : « ما استطعتم » يتجلى لطف الله بعباده ، وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته . وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »^١ فالطاعة في الأمر ليس لها حدود ، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع . أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان . ويهيب بهم إلى الإنفاق :

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة .

« وأنفقوا خيراً لأنفسكم » ..

فهم ينفقون لأنفسهم . وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم . فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم ، ويعدها الخير لهم حين يفعلون .

ويريهم شح النفس بلاء ملازماً . السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ، والوقاية منه فضل من الله :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ..

ثم يمضي في إغرائهم بالبذل وتحبيهم في الإنفاق ، فيسمي إنفاقهم قرضاً لله . ومن ذا الذي لا يريح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه ؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به ، ويشكر المقرض ، ويحلم عليه حين يقصر في شكره . وهو الله !

« إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله شكور حلیم » ..

وتبارك الله . ما أكرمه ! وما أعظمه ! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه . ثم يسأله فضل ما أعطاه . قرضاً . يضاعفه ..

ثم .. يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه ! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه .. ! يا الله ! ! !

إن الله يعلمنا - بصفاته - كيف تتسامى على نقصنا وضعفنا ، ونتطلع إلى أعلى دائماً لنراه - سبحانه - ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة . وقد نفخ الله في الإنسان من روحه . فجعله مشتاقاً أبداً إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته ، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائماً ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع ، ويحاول الارتقاء درجة بعد درجة ، حتى يلقي الله بما يحبه له ويرضاه .

ويختم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب ، بصفة الله التي بها الإطلاع والرقابة على القلوب :

« عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » ..

فكل شيء مكشوف لعلمه ، خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته . كي يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم ، وسلطانه عليهم ، وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه . ويكفي أن يستقر هذا التصور في القلوب ، لتتقي الله وتخلص له وتستجيب .

* * *

(٦٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَلَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّيْئِ يَنْسِنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ ۚ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ۚ وَاللَّيْئِ لَمْ يَحْضَنْ ۚ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكُمْ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ ۚ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۚ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَعَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَأَمِّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسَرِّضْ لَهُ ۚ أُخْرَى ۚ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ۚ أَتَاهَا سَيِّجَعُلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ۖ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٥٥﴾ فَذَاقَتْ
وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا حُسرًا ﴿٥٦﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٥٧﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿٥٨﴾

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٦﴾

هذه سورة الطلاق ، يبين الله فيها أحكامه ، ويفصل فيها الحالات التي لم تفصل في السورة الأخرى (سورة البقرة) التي تضمنت بعض أحكام الطلاق ؛ ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة . وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله الله ويجري وفق سنته : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » ..

وحق المطلقة وواجبها في البقاء في بيتها - وهو بيت مطلقها - فترة العدة لا تخرج ولا تخرج إلا أن تأتي بفاحشة مسنة : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » ..

وحقها بعد انقضاء العدة في الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء ، ما لم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها في فترة العدة ، لا لبسارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلها عن الزواج ، ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف » .. وهذا مع الإشهاد على الإمساك أو الفراق : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » ..

وفي سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض - وهي ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهي - وهنا بين هذه المدة بالنسبة للآيسة التي انقطع حيضها وللصغيرة التي لم تحض : « واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن » .. وبين عدة الحامل : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » ..

ثم فصل حكم المسكن الذي تعتد فيه المعتدة ونفقة الحمل حتى تضع : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضييقا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » ..

ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه ، وأجر الأم على الرضاعة في حالة الاتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما ، وفي حالة إرضاعه من أخرى : « فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » ..

ثم زاد حكم النفقة والأجر في جميع الحالات تفصيلاً ، فجعله تابعاً لحالة الزوج وقدرته : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » .. وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات ، وما يتخلف عنها ، بأحكام مفصلة دقيقة ، ولم تدع شيئاً من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في مكانه ، وبينت حكمه ، في رفق وفي دقة وفي وضوح ..

* * *

ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب ، والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأرضين ، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره ، وفي الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي ، وإيثار الجميل . والإطماع في الخير . والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق ، وفي اليسر والعسر ..

يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام - حتى ليوجه الخطاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، زيادة في الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة ، والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته ، وتقوى الله في تنفيذه ، ومراقبة الله في تناوله . والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب ، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التي تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن ؛ وتوعد الملتوين والمتلكنين والمضارين بأشد ما يلقاه عاصٍ ؛ وتلوح للناس بالرجاء الندي والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير .

ويقراً القارئ في هذه السورة .. « واتقوا الله ربكم » .. « وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .. « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .. « وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله » .. « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » .. « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » .. « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدراً » .. « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » .. « ذلك أمر الله أنزله إليكم » « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » .. « سيجعل الله بعد عسر يسراً » ..

كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل : « وكأي من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً ، وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً . أعد الله لهم عذاباً شديداً » .. يعقبه التحذير من مثل هذا المصير ، والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور ، والتلويح بالأجر الكبير : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكراً : رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً » ..

ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير : « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً » .. يقرأ هذا كله تعقيباً على أحكام الطلاق . ويجد سورة كاملة في القرآن ، من هذا الطراز ، كلها موقوفة

على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان في المجال الكوني والنفسي . وهي حالة تهدم لا حالة بناء ، وحالة انتهاء لا حالة إنشاء .. لأسرة .. لا لدولة .. وهي توقع في الحس أنها أضخم من إنشاء دولة !

علام يدل هذا ؟

إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد . حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة !

إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي :

فالإسلام نظام أسرة . البيت في اعتباره مثابة وسكن ، في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ؛ وفي كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ؛ ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل .

ومن ثم يصور العلاقة البيئية تصويراً رفاقاً شفيفاً ، يشع منه التعاطف ، وترف فيه الظلال ، ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العبير : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .. « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .. فهي صلة النفس بالنفس ، وهي صلة السكن والقرار ، وهي صلة المودة والرحمة ، وهي صلة السر والتجمل . وإن الإنسان ليحس في الألفاظ ذاتها حنواً ورفقاً ، ويستروح من خلالها نداوة وظلاً . وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق . ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها ، بما فيها امتداد الحياة بالنسل ، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة ، ويعترف بطهارتها وجديتها ، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها . ذلك حين يقول : « نساؤكم حرث لكم » . فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

ويحيط الإسلام هذه الخلية ، أو هذا المحضن ، أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الإسلام الكلية ، فإنه لا يكتفي بالإشعاعات الروحية ، بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية^١ . والذي ينظر في تشريعات الأسرة في القرآن والسنة في كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها ، وينظر في التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات ، وفي الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ؛ وفي ربط هذا الشأن بالله مباشرة في كل موضع ، كما هو الحال في هذه السورة وفي غيرها .. يدرك إدراكاً كاملاً ضخامة شأن الأسرة في النظام الإسلامي ، وقيمة هذا الأمر عند الله ، وهو يجمع بين تقواه - سبحانه - وتقوى الرحم في أول سورة النساء حيث يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً » .. كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين في سورة الإسراء وفي غيرها : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » .. وبين الشكر لله والشكر للوالدين في سورة لقمان : « أن اشكر لي ولوالديك » ..

وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهي بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة ، حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية في الوجود البشري هي أسرة آدم وزوجه ، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى . وكان الله - سبحانه - قادراً على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة

(١) كتاب السلام العالمي والإسلام . فصل : إسلام البيت . « دار الشروق ».

واحدة . ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة في وظيفة الأسرة الضخمة في حياة هذا المخلوق ، حيث تلي حياة الأسرة فطرته واستعداداته ، وحيث تنمي شخصيته وفضائله ، وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات في حياته . ثم جرت هذه العناية في النظام الإسلامي - منهج الله الأخير في الأرض - مع القدر الإلهي في خلقه الإنسان ابتداء . كما هو الشأن في تناسق كل ما يصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف .

والدلالة الثانية لسياق السورة ، وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال في القرآن كله ، هي اتجاه النظام الإسلامي لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ، واتخاذها وسيلة للتطهر الروحي والنظافة الشعورية - لا كما كان ينظر إليها في العقائد الوثنية ، وعند أتباع الديانات المحرفة ، البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها .

« إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ، إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيواني ، ويرقيها حتى تصبح هي المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية . ويقم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين ، التقاء نفسين وقلبين وروحين . وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقي في الذرية المرتقبة ، ويتقابل في الجيل الجديد ، الذي ينشأ في العش المشترك ، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان »^١ .

ويعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتقاء فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » . . . ويسمي الزواج إحصاناً أي وقاية وصيانة . ويستقر في أخلاق المؤمنين أن البقاء بدون إحصان ولو فترة قصيرة لا ينال رضى الله . فيقول الإمام علي - كرم الله وجهه - وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجته فاطمة بنت الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « لقد خشيت أن ألقى الله وأنا عزب » . . . فيدخل الزواج في عرف المؤمن في الطاعات التي يتقرب بها إلى ربه . وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة في ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه .

والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هي واقعية هذا النظام الإسلامي ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هي في فطرتها ، مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الكريم ، عن طريق استعداداتها وملابسات حياتها . ومن ثم لا يكتفي بالتشريع الدقيق في هذا الأمر الموكول إلى الضمير . ولا يكتفي بالتوجيه . ويستخدم هذا وذلك في مواجهة واقع النفس وواقع الحياة .

إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار . والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها . وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق ! ويفرض حد الزنا وحد القذف ؛ ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها

(١) في ظلال القرآن . الجزء ١٨ ص ٢٤٨٩ .

والاستئذان بين أهلها في داخلها .

وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة ، ويقم نظام البيت على أساس قوامة أحد الشريكين وهو الأقدر على القوامة ، منعاً للفوضى والاضطراب والتزاع .. إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز . فوق التوجيهات العاطفية . وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته .

ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات . وهي حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية ، اعترافاً بمنطق الواقع الذي لا يجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية ، ويصبح الإمساك بالزوجية عبثاً لا يقوم على أساس !

« والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيقصمه لأول وهلة ، ولأول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة ، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس .

« إنه يهتف بالرجال : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .. فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية ، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فما يدرهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيراً ، وأن الله يدخر لهم هذا الخير . فلا يجوز أن يفلتوه . إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا في استحياء الانعطاف الوجداني واستثارته ، وترويض الكره وإطفاء شرته .

« فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز والنفور ، فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام . بل لا بد من محاولة يقوم بها الآخرون ، وتوفيق يحاوله الخيرون : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله ، وحكماً من أهلها إن يريداً إصلاحاً يوفق الله بينهما . إن الله كان عليماً خبيراً » .. « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً . فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير » ..

« فإذا لم تجد هذه الوساطة ، فالأمر إذن جد ، وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة ، ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة ، يزيد بها الضغط فشلاً ، ومن الحكمة التسليم بالواقع ، وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام ، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق^١ .

فإذا أراد أن يطلق فليس في كل لحظة يجوز الطلاق . إنما السنة أن يكون في طهر لم يقع فيه وطء .. وفي هذا ما يؤجل فصح العقدة فترة بعد موقف الغضب والانفعال . وفي خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس ، وتقر القلوب ، ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق !

ثم بعد ذلك فترة العدة . ثلاثة قروء للتي تحيض وتلد . وثلاثة أشهر للآيسة والصغيرة . وفترة الحمل للحوامل . وفي خلالها مجال للمعاودة إن نبضت في القلوب نابضة من مودة ، ومن رغبة في استئناف ما انقطع من حبل الزوجية . ولكن هذه المحاولات كلها لا تنفي أن هناك انفصالاً يقع ، وحالات لا بد أن تواجهها الشريعة مواجهة عملية واقعية ، فتشرع لها ، وتنظم أوضاعها ، وتعالج آثارها . وفي هذا كانت تلك الأحكام الدقيقة المفصلة ، التي تدل على واقعية هذا الدين في علاجه للحياة ، مع دفعها دائماً إلى الأمام . ورفعها دائماً إلى السماء . والدلالة الرابعة للسورة وما فيها من الترغيب والترهيب والتعقيب والتفصيل الشديد والتوكيد ، هو أنها

(١) كتاب السلام العالمي والإسلام ص ٦٥ - ٦٦ . « دار الشروق »

كانت تواجه حالات واقعة في الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية ، وما كانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف ، مما اقتضى هذا التشديد ، وهذا الحشد من المؤثرات النفسية ، ومن التفاصيل الدقيقة ، التي لا تدع مجالاً للتلاعب والالتواء مع ما كان مستقراً في النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين ، ومن تفكك وفوضى في الحياة العائلية^١ .

ولم يكن الحال هكذا في شبه الجزيرة وحدها ، إنما كان شائعاً في العالم كله يومذاك . فكان وضع المرأة هو وضع الرقيق أو ما هو أسوأ من الرقيق في جنبات الأرض جميعاً . فوق ما كان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار ، وإلى المرأة كأنها شيطان يغري بهذه القذارة .

ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم الذي سبقت الإشارة إليه . وأنشأ للمرأة ما أنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات .. وليدة لا تؤاد ولا تهان . ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ثيباً أو بكرأ . وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة . ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة في هذه السورة وفي سورة البقرة وغيرها ..

شرع الإسلام هذا كله . لا لأن النساء في شبه الجزيرة أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأن مكانهن غير مرض ! ولا لأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء . ولا لأنه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي ! ولا لأن المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس الشورى ! ولا لأن هاتفاً واحداً في الأرض هتف بتغيير الأحوال .. إنما كانت هي شريعة السماء للأرض . وعدالة السماء للأرض . وإرادة السماء بالأرض .. أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة ، وأن تتطهر العلاقات الزوجية من تلك الوصمة ، وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان .

.. هذا دين رفيع .. لا يعرض عنه إلا مظموس . ولا يعيبه إلا منكوس ، ولا يحاربه إلا موكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

* * *

والآن نستعرض الأحكام في سياق السورة - بعد هذا الاستطراد الذي لا يبعد كثيراً عن جو هذا الجزء وما فيه من تنظيم وبناء للجماعة المسلمة - والأحكام في سياق السورة شيء آخر غير ذلك التلخيص . شيء حي . فيه روح . وفيه حركة . وفيه حياة . وفيه إحياء .. وله إيقاع . وهذا هو الفارق الأصيل بين مدارس الأحكام في القرآن ومدارسها في كتب الفقه والأصول .

* * *

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » ..

هذه هي أول مرحلة وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - « يا أيها النبي » .. ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه - صلى الله عليه وسلم - : « إذا طلقتم النساء ... الخ » فيوحي هذا النسق من التعبير بما وراءه ، وهو إثارة الاهتمام ، وتصوير الجدية . فهو أمر ذوبال ، ينادي الله نبيه بشخصه

(١) يراجع الجزء الواحد والعشرون ص ٢٨٢٤ - ٢٨٢٥ .

ليأتي إليه فيه بأمره ، كما يبلغه لمن وراءه . وهي إحياءات نفسية واضحة الدلالة على ما يراد بها من احتفال واحتشاد .

« إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » ..

وقد ورد في تحديد معنى هذا النص حديث صحيح رواه البخاري ولفظه : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، حدثني عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرني سالم ، أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض ، فذكر عمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتغيظ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل » ..

ورواه مسلم ولفظه : « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » ..

ومن ثم يتعين أن هناك وقتاً معيناً لإيقاع الطلاق ؛ وأنه ليس للزوج أن يطلق حيناً شاء إلا أن تكون امرأته في حالة طهر من حيض ، ولم يقع بينهما في هذا الطهر وطء . وتفيد آثار أخرى أن هناك حالة ثانية يجوز فيها الطلاق ، وهو أن تكون الزوجة حاملاً بينة الحمل . والحكمة في ذلك التوقيت هي أولاً إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التي تنجس فيها النفس للطلاق ؛ وقد تسكن الفورة إن كانت طارئة وتعود النفوس إلى الوثام . كما أن فيه تأكيداً من الحمل أو عدمه قبل الطلاق . فقد يمسك عن الطلاق لو علم أن زوجه حامل . فإذا مضى فيه وقد تبين حملها دل على أنه مريد له ولو كانت حاملاً . فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقيق من عدم الحمل ، واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرة من الأمر .

وهذه أول محاولة لرأب الصدع في بناء الأسرة ، ومحاولة دفع المعول عن ذلك البناء .

وليس معنى هذا أن الطلاق لا يقع إلا في هذه الفترة . فهو يقع حيناً طلق^١ . ولكنه يكون مكروهاً من الله ، مغضوباً عليه من رسول الله . وهذا الحكم يكفي في ضمير المؤمن ليمسك به حتى يأتي الأجل . فيقضي الله ما يريد في هذه المسألة .

« وأحصوا العدة » ..

كي لا يكون في عدم إحصائها إطالة للأمد على المطلقة ، ومضارة لها بمنعها من الزواج بعد العدة . أو نقص في مدتها لا يتحقق به الغرض الأول ، وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل المستكن حفظاً للأنساب . ثم هو الضبط الدقيق الذي يوحى بأهمية الأمر ، ومراقبة السماء له ، ومطالبة أصحابه بالدقة فيه !

« واتقوا الله ربكم . لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

وهذا أول تنبيه - بعد وهلة النداء الأول - وأول تحذير من الله وتقدير تقواه . قبل الأمر بعدم إخراجهن من بيوتهن - وهي بيوت أزواجهن ولكنه يسميها بيوتهن لتأكيد حقهن في الإقامة بها فترة العدة - لا يُخرجن منها ولا يُخرجن ، إلا في حالة وقوع فاحشة ظاهرة منهن . وقد ورد أن هذه الفاحشة قد تكون الزنا فتخرج للحد : وقد تكون إيذاء أهل الزوج . وقد تكون هي التشويز على الزوج - ولو أنه مطلق - وعمل ما يؤذيه . ذلك أن الحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة ، واستثارة عواطف المودة ، وذكريات

(١) هذا هو الرأي الفقهي الراجح . وهناك قول بعدم وقوع الطلاق إلا في هذه الفترة .

الحياة المشتركة . حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين ؛ فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين ! فأما حين ترتكس في حماة الزنا وهي في بيته ! أو تؤذي أهله ، أو تنشر عليه ، فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة ، واستجاشة المودة الدفينة . ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدة . فإن قربها منه حينذاك يقطع الشوائب ولا يستحيها !

« وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » ..

وهذا هو التحذير الثاني . فالحارس لهذا الحكم هو الله . فأني مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله ؟ ! إنه الهلاك والبوار .. « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .. ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها . وظلم نفسه بظلم زوجه . وهي وهو من نفس واحدة ، فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار .. ثم ..

« لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .

وهي لمسة موحية مؤثرة . فمن ذا الذي يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة ، وأمره ببقاء المطلقات في بيوتهن .. إنه يلوح هناك أمل ، ويصوص هناك رجاء . وقد يكون الخير كله . وقد تتغير الأحوال وتبدل إلى هناءة ورضى . فقدر الله دائم الحركة ، دائم التغيير ، ودائم الأحداث . والتسليم لأمر الله أولى ، والرعاية له أوفق ، وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك !

* * *

والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة ، وما فيها من أوضاع وملابسات ، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل ، فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة ، وتشعر أنها سرمد ، وأنها باقية ، وأن ما فيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها .. وهذا سجن نفسي مغلق مفسد للأعصاب في كثير من الأحيان .

وليست هذه هي الحقيقة . فقدر الله دائماً يعمل ، ودائماً يغير ، ودائماً يبدل ، ودائماً ينشئ ما لا يحول في حسابان البشر من الأحوال والأوضاع . فرج بعد ضيق . وعسر بعد يسر . وبسط بعد قبض . والله كل يوم هو في شأن ، يبدية للخلق بعد أن كان عنهم في حجاب .

ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة في نفوس البشر ، ليظل تطلعهم إلى ما يحدثه الله من الأمر متجدداً ودائماً . ولتظل أبواب الأمل في تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة . ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل ، ندية بالرجاء ، لا تغلق المنافذ ولا تعيش في سجن الحاضر . واللحظة التالية قد تحمل ما ليس في الحسبان .. « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » ..

« فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوي عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدراً » ..

وهذه هي المرحلة الثانية وهذا هو حكمها . وبلوغ الأجل آخر فترة العدة . وللزوج ما دامت المطلقة لم تخرج من العدة - على آجالها المختلفة التي سبق بيانها - أن يراجعها فتعود إلى عصمته بمجرد مراجعتها - وهذا هو إمساكها - أو أن يدع العدة تمضي فتبين منه ولا تحل له إلا بعقد جديد كالزوجة الجديدة . وسواء راجع أم فارق فهو مأمور بالمعروف فيهما . منهى عن المضارة بالرجعة ، كأن يراجعها قبيل انتهاء العدة ثم يعود فيطلقها

الجزء الثامن والعشرون

الثانية ثم الثالثة لطيل مدة بقائها بلا زواج ! أو أن يراجعها ليقبها كالمعلقة ، ويكايدها لتفتدي منه نفسها - وكان كلاهما يقع عند نزول هذه السورة ، وهو ما يزال يقع كلما انحرفت النفوس عن تقوى الله . وهي الضمان الأول لأحكامه في المعاشرة والفراق . كذلك هو منهي عن المضارة في الفراق بالسب والشتم والغلظة في القول والغضب ، فهذه الصلة تقوم بالمعروف وتنتهي بالمعروف استبقاء لمودات القلوب ؛ فقد تعود إلى العشرة ، فلا تنطوي على ذكرى رديئة ، لكلمة نابية ، أو غمزة شائكة ، أو شائبة تعكر صفاءها عندما تعود . ثم هو الأدب الإسلامي المحض الذي يأخذ الإسلام به الألسنة والقلوب .

وفي حالتي الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك . شهادة اثنين من العدول . قطعاً للرية . فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة ، فتثور شكوك وتقال أقاويل . والإسلام يريد النصاعة والطهارة في هذه العلاقات وفي ضمائر الناس وألسنتهم على السواء . والرجعة تتم وكذلك الفرقة بدون الشهادة عند بعض الفقهاء ولا تتم عند بعضهم إلا بها . ولكن الإجماع أن لا بد من الشهادة بعد أو مع الفرقة أو الرجعة على القولين . وعقب بيان الحكم تحيء اللمسات والتوجيهات ترى :

« وأقيموا الشهادة لله » ..

فالقضية قضية الله ، والشهادة فيها لله ، هو يأمر بها ، وهو يراقب استقامتها ، وهو يجزي عليها . والتعامل فيها معه لا مع الزوج ولا الزوجة ولا الناس !

« ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » .

والمخاطبون بهذه الأحكام هم المؤمنون المعتقدون باليوم الآخر . فهو يقول لهم : إنه يعظهم بما هو من شأنهم . فإذا صدقوا الإيمان به وباليوم الآخر فهم إذن سيتعظون ويعتبرون . وهذا هو محك إيمانهم ، وهذا هو مقياس دعواهم في الإيمان !

« ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ..

مخرجاً من الضيق في الدنيا والآخرة ، ورزقاً من حيث لا يقدر ولا ينتظر . وهو تقرير عام ، وحقيقة دائمة . ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحى بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون الله في هذا الشأن بصفة خاصة . وهو الشأن الذي لا ضابط فيه أحس ولا أدق من ضابط الشعور والضمير ، فالتلاعب فيه مجال واسع ، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير .

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره » ..

فجبال الكيد في هذه العلاقة واسع ، ومسالكه كثيرة ، وقد تؤدي محاولة اتقاء الكيد إلى الكيد ! فهنا إحياء بترك هذه المحاولة ، والتوكل على الله ، وهو كافٍ لمن يتوكل عليه . فالله بالغ أمره . فما قدر وقع ، وما شاء كان ؛ فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر ، وقوة القاهر . الفعال لما يريد . البالغ ما يشاء .

والنص عام . والمقصود به هو إنشاء التصور الإيماني الصحيح في القلب ، بالنسبة لإرادة الله وقدره .. ولكن وروده هنا بمناسبة أحكام الطلاق له إيحائه في هذا المجال وأثره .

« قد جعل الله لكل شيء قدراً » ..

فكل شيء مقدر بمقداره ، وبزمانه ، وبمكانه ، وبملاساته ، وبتأثيره وأسبابه . وليس شيء مصادفة ، وليس شيء جزافاً . في هذا الكون كله ، وفي نفس الإنسان وحياته .. وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب

كبير من التصور الإيماني . (وقد فصلنا الحديث عنها عند استعراض قوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » في سورة الفرقان . وعند قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .. في سورة القمر) . ولكن ذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ما قدره الله عن الطلاق وفترته ، والعدة ووقتها ، والشهادة وإقامتها . وبطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة ، والناموس الكلي العام . ويوقع في الحس أن الأمر جد من جد النظام الكوني المقدر في كل خلق الله .

* * *

« واللائي يئسن من المحيض من نسائكم - إن ارتبتم - فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً . ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » .

وهذا تحديد لمدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل . يشمل اللواتي انقطع حيضهن ، واللاتي لم يحضن بعد لصغر أو لعلّة . ذلك أن المدة التي بينت من قبل في سورة البقرة كانت تنطبق على ذوات الحيض - وهي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات . حسب الخلاف الفقهي في المسألة - فأما التي انقطع حيضها والتي لم تحض أصلاً فكان حكمها موضع لبس : كيف تحسب عدتها ؟ فجاءت هذه الآية تبين وتنفي اللبس والشك ، وتحدد ثلاثة أشهر لهؤلاء وهؤلاء ، لاشتراكهن في عدم الحيض الذي تحسب به عدة أولئك . أما الحوامل فجعل عدتهن هي الوضع . طال الزمن بعد الطلاق أم قصر . ولو كان أربعين ليلة فترة الطهر من النفاس . لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار . والمطلقة تبين من مطلقها بمجرد الوضع ، فلا حكمة في انتظارها بعد ذلك ، وهي غير قابلة للرجعة إليه إلا بعقد جديد على كل حال . وقد جعل الله لكل شيء قدراً . فليس هناك حكم إلا ووراءه حكمة .

هذا هو الحكم ثم نجى اللمسات والتعقيبات :

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » ..

واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان . وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده . فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة . يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره . وينالها بيسر في حركته وعمله . ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها . ويعيش من هذا في سر رخي ندي ، حتى يلقي الله .. ألا إنه لإغراء باليسر في قضية الطلاق مقابل اليسر في سائر الحياة !

« ذلك أمر الله أنزله إليكم » ..

وهذه لمسة أخرى في جانب آخر . لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر .. فقد أنزله الله . أنزله للمؤمنين به ، فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان ، ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله .

ثم عودة إلى التقوى التي يدق عليها دقاً متواصلاً في هذا المجال :

« ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » ..

فالأولى تيسير للأمور . والثانية تكفير للسيئات وإعظام للأجر بعد التكفير .. فهو الفيض المغربي والعرض المثير . وهو حكم عام ووعد شامل . ولكنه يخلع على موضوع الطلاق ظلاله ، ويغمر القلب بالشعور بالله

وفضله العميم . فما له إذن يعسر ويعقد والله يغمره بالتيسير والمغفرة والأجر الكبير ؟

* * *

« أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضييقا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن . فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه ، سيجعل الله بعد عسر يسراً » ..

وهذا هو البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة في البيوت ، والإنفاق في فترة العدة - على اختلاف مدتها . فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى . لا أقل مما هم عليه في سكناهم ، وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم . غير عامدين إلى مضاربتهم سواء بالتضييق عليهن في فسحة المسكن أو مستواه أو في المعاملة فيه . وخص ذوات الأحمال بذكر النفقة - مع وجوب النفقة لكل معتدة - لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أو بزيادة عنه إذا قصرت مدته . فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعي .

ثم فصل مسألة الرضاعة فلم يجعلها واجباً على الأم بلا مقابل . فما دامت ترضع الطفل المشترك بينهما ، فمن حقها أن تنال أجراً على رضاعته تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير ، وهذا منتهى المراعاة للأم في هذه الشريعة . وفي الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتبرا بينهما بالمعروف في شأن هذا الوليد ، ويتشاورا في أمره ورائدهما مصلحته ، وهو أمانة بينهما ، فلا يكون فشلهما هما في حياتهما نكبة على الصغير البريء فيهما ! وهذه هي المياسرة التي يدعوها الله إليها . فأما إذا تعاسرا ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها ، فالطفل مكفول الحقوق : « فسترضع له أخرى » .. دون اعتراض من الأم ودون تعطيل لحق الطفل في الرضاعة ، بسبب تعاسرهما بعد فشلهما !

ثم يفصل الأمر في قدر النفقة . فهو اليسر والتعاون والعدل . لا يجوز هو ، ولا تتعنت هي . فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة . سواء في السكن أو في نفقة المعيشة أو في أجر الرضاعة . ومن ضيق عليه في الرزق ، فليس عليه من حرج ، فالله لا يطالب أحداً أن ينفق إلا في حدود ما آتاه . فهو المعطي ، ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله . فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هذا المصدر ، وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه » ..

ثم لمسة الإرضاء ، وإفساح الرجاء ، للثنتين على السواء :

« سيجعل الله بعد عسر يسراً » ..

فالأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر . فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله ، وأن يتجها إليه بالأمر كله ، وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه . وهو المانع المانع . القابض الباسط . ويبيده الضيق والفرج ، والعسر واليسر ، والشدة والرخاء .

* * *

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته ، وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ؛ ولم يدع من البيت المتهدم أنقاضاً ولا غباراً يملأ النفوس ويغشى القلوب ، ولم يترك بعده عقابيل غير

مستريحة بعلاج ، ولا قلاقل تثير الاضطراب .

وكذلك يكون قد عالج جميع الوسوس والهواجس التي تثور في القلوب ، فتمنعها من السباحة والتيسير والتجمل للأمر . فأبعد أشباح الفقر والضيق وضباب الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسع على مطلقته أو مرضعة ولده . ومن نفس الزوجة التي تضيق بنفقة الإعسار ، أو تطمع في زيادة ما تصيب من مال زوجها السابق . فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى ، والضيق بعد الفرج ، والرزق من حيث لا يحتسب ، وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير هناك بعد التكفير .

كما عالج ما تخلفه حالة الخلاف والشقاق التي أدت إلى الطلاق . من غيظ وحقد ومشادة وغبار في الشعور والضمير .. فمسح على هذا كله بيد الرفق والتجمل ، ونسم عليه من رحمة الله والرجاء فيه ؛ ومن ينابيع المودة والمعروف التي فجرها في القلوب بلمسات التقوى والأمل في الله وانتظار رضاه .

وهذا العلاج الشامل الكامل ، وهذه اللمسات المؤثرة العميقة ، وهذا التوكيد الوثيق المتكرر .. هذه كلها هي الضمانات الوحيدة في هذه المسألة لتنفيذ الشريعة المقررة . فليس هناك ضابط إلا حساسية الضمائر وتقوى القلوب . وإن كلا الزوجين ليملك مكايده صاحبه حتى تنفقي مرارته إذا كانت الحواجز هي فقط حواجز القانون !! وبعض الأوامر من المرونة بحيث تسع كل هذا . فالأمر بعدم المضارة : « ولا تضاروهن » يشمل النهي عن ألوان من العنت لا يحصرها نص قانوني مهما اتسع . والأمر فيه موكول إلى هذه المؤثرات الوجدانية ، وإلى استجاشة حاسة التقوى وخوف الله المطلع على السرائر ، المحيط بكل شيء علماً . وإلى التعويض الذي يعده الله للمتقين في الدنيا والآخرة . وبخاصة في مسألة الرزق التي تكرر ذكرها في صور شتى ، لأنها عامل مهم في تيسير الموقف ، وتندية الجفاف الذي تنشئه حالة الطلاق ..

وإن الزوجين ليفارقان - في ظل تلك الأحكام والتوجيهات - وفي قلوبهما بذور للود لم تمت ، وندادة قد تحيي هذه البذور فتنبت .. ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذي يريد الإسلام أن يصنع به حياة الجماعة المسلمة ، ويشيع فيها أرجه وشده .

* * *

فإذا انتهى السياق من هذا كله ساق العبرة الأخيرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله ، فلم يسمعوا ولم يستجيبوا . وعلق هذه العبرة على الرؤوس ، تذكروهم بالمصير البائس الذي ينتظر من لا يتقي ولا يطيع . كما تذكروهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع :

« وكأي من قرية عنت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسرأ . أعد الله لهم عذاباً شديداً . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكراً : رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . قد أحسن الله له رزقاً » ..

وهو إنذار طويل وتحذير مفصل المشاهد . كما أنه تذكير عميق بنعمة الله بالإيمان والنور ، ووعدته بالأجر في الآخرة وهو أحسن الرزق وأكرم .

فأخذ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلم لرسله هو سنة متكررة : « وكأي من قرية عنت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً » . وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير والعذاب النكير ،

ثم تصوير العاقبة وسوء المصير : « فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » .. ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة في الآية التالية : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » .. كل هذا لإطالة المشهد وتفصيل خطواته ومراحله . وهي طريقة من طرق الأسلوب القرآني في تعميق الأثر في الحس وإطالة مكثه في الأعصاب ^١ .

ونقف لحظة أمام هذا التحذير فترى أن الله أخذ القرى واحدة بعد واحدة كلما عنت عن أمر ربها ورسله .. ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه ، فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية . ويوحى هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو أزواج . إنما هو أمر الأمة المسلمة كلها . فهي المسؤولة عن هذا الأمر . وهي المسؤولة فيه عن شريعة الله . ومخالفتها عن أمر الله فيه - أو مخالفتها عن أمر الله في غيره من أحكام هذا النظام ، أو هذا المنهج الإلهي المتكامل للحياة - هي عتو عن أمر الله ، لا يؤاخذ به الأفراد الذين يرتكبونه ، إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التي تقع فيها المخالفة ، والتي تنحرف في تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره . فقد جاء هذا الدين ليطاع ، ولينفذ كله ، وليبين على الحياة كلها . فمن عتا عن أمر الله فيه - ولو كان هذا في أحوال الأفراد الشخصية - فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التي لا تتخلف أبداً .

وتلك القرى ذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً .. ذاقته في هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير . ولقد ذاقت هذا الوبال قرى وأمم وشعوب عنت عن منهج الله في الأرض . ونحن نشهد وأسلافنا شهدوا هذا الوبال . ذاقته فساداً وانحلالاً ، وفقراً وقحطاً ، وظلماً وجوراً ، وحياة مفزعة لا أمن فيها ولا سلام ، ولا طمأنينة فيها ولا استقرار . وفي كل يوم نرى مصداق هذا النذير !

وذلك فوق العذاب الشديد الذي ينتظر العتاة عن أمر الله ونهجه في الحياة حيث يقول الله : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » .. والله أصدق القائلين .

إن هذا الدين منهج نظام جماعي - كما أسلفنا الحديث في سورة الصف - جاء لينشئ جماعة مسلمة ذات نظام خاص . وجاء ليصرف حياة هذه الجماعة كلها . ومن ثم فالجماعة كلها مسؤولة عنه ، مسؤولة عن أحكامه . ولن تخالف عن هذه الأحكام حتى يحق عليها هذا النذير الذي حق على القرى التي عنت عن أمر ربها ورسله . وفي مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولي الألباب الذين آمنوا . الذين هدتهم إلى الإيمان . يهتف بهم ليتقوا الله الذي أنزل لهم الذكر : « قد أنزل الله إليكم ذكراً » .. ويجسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيجعل شخصه الكريم هو الذكر ، أو بدلاً منه في العبارة : « رسلاً يتلو عليكم آيات الله مبينات » ..

وهنا لفظة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل متنوعة ..

إن هذا الذكر الذي جاء من عند الله مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكأن الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته ، لم تحجب شخصية الرسول شيئاً من حقيقته .

والوجه الثاني لإيحاء النص هو أن شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد استحالت ذكراً ، فهي صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو . وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن . وكذلك كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهكذا وصفته عائشة - رضي الله عنها - وهي تقول : « كان خلقه القرآن » .. وهكذا كان القرآن في خاطره في مواجهة الحياة . وكان هو القرآن يواجه الحياة !

(١) يراجع فصل « التناسق الفني » في كتاب « التصوير الفني في القرآن » « دار الشروق » .

سورة الطلاق

وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح ، وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبداً . وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق ، فلا يقاس إليه رزق الأرض : « قد أحسن الله له رزقاً » .. وهو الرازق في الدنيا والآخرة ، ولكن رزقاً خيراً من رزق ، واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم . وهكذا يلمس نقطة الرزق مرة أخرى ، ويهون بهذه الإشارة من رزق الأرض ، إلى جانب رزق الجنة . بعدما وعد في المقاطع الأولى بسعة رزق الأرض أيضاً ..

* * *

وفي الختام يجيء ذلك الإيقاع الكوني الهائل ، فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجيهاتها بقدر الله وقدره الله ، وعلم الله ، في المجال الكوني العريض :
« الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، ينتزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً » ..

والسماوات السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحاتها . وكذلك الأراضي السبع . فقد تكون أرضنا هذه التي نعرفها واحدة منهن والباقيات في علم الله . وقد يكون معنى مثلهن أن هذه الأرض من جنس السماوات فهي مثلهن في تركيبها أو خصائصها .. وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا ، لأن علمنا لا يحيط بالكون ، حتى نقول على وجه التحقيق : هذا ما يريده القرآن . ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علماً يقينياً .. وهيئات .. !

فنتنفع بإيحاء هذه الإشارة إلى تلك الحقيقة في مجالها النفسي ، وفي إنشاء التصور الإيماني الكوني الصحيح . والإشارة إلى هذا الكون الهائل : « سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » .. يهول الحس ويقف القلب وجهاً لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق ، وسعة ملكه ، تصغر أمامه هذه الأرض كلها ، فضلاً على بعض ما فيها ، فضلاً على حادث من أحداثها . فضلاً على دريهمات ينفقها الزوج أو تتنازل عنها الزوجة !

وبين هذه السماوات السبع والأرض أو الأرضين السبع ينتزل أمر الله - ومنه هذا الأمر الذي هم بصددده في هذا السياق . فهو أمر هائل إذن ، حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم في المكان والزمان بقدر ما يطبقون التصور . والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين ، ويتسامع به الملائ الأعلى وخلق الله الآخرون في السماوات والأرضين . فهي مخالفة بلقاء شعاء ، لا يقدم عليها ذو عقل مؤمن ، جاء رسول يتلو عليه آيات الله مبينات ، ويبين له هذا الأمر ، ليخرجه من الظلمات إلى النور ..

وهذا الأمر ينتزل بين السماوات والأرض ، لينشئ في قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شيء قدير ؛ فلا يعجزه شيء مما يريد . وأنه أحاط بكل شيء علماً ؛ فلا يند عن علمه شيء مما يكون في ملكه الواسع العريض ، ولا مما يسرونه في حنايا القلوب .

ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين :

الأول أن الله الذي أحاط بكل شيء علماً هو الذي يأمر بهذه الأحكام . فقد أنزلها وهو يحيط بكل ظروفهم وملاساتهم ومصالحهم واستعداداتهم . فهي أولى بالاتباع لا يلتفتون عنها أدنى التفات ؛ وهي من وضع العليم المحيط بكل شيء علماً .

والثاني أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر ، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمان

الجزء الثامن والعشرون

لحساسية هذه الضمائر ، في شأن لا يجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور .

* * *

وهكذا تختتم السورة بهذا الإيقاع الذي يهول ويروع ، بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع . فسيحان خالق القلوب ، العليم بما فيها من المنحنيات والدروب !

* * *

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا اثْنَا عَشَرَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تُتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسْلِمَتٍ مُؤْمِنَةٍ قَلْبُهَا تُتَابٌ تَتَّبَعَتْ عِبْدَتٍ سَبَّحَتْ ثِيَابَهَا وَابْكَارًا ﴿٥﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْعًا

وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا
فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا
فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُقَنَّتِينَ ﴿١١٢﴾

عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة ؛ وأن يجعل منهجه هو المنهج الباقي إلى آخر
الخلقة ؛ وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام ؛ وأن يكون هذا الدين هو الذي يقود حياة
البشرية ويهيمن على نشاطها في كل ميدان ..

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة ، شاملاً كاملاً متكاملًا ، يلبي كل
طاقات البشر واستعداداتهم ، في الوقت الذي يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللاتق بخليفة
الله في الأرض ، وبالكائن الذي كرمه الله على كثير من عبادته ، ونفخ فيه من روحه .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام : نمواً وتكاثراً ، ورفعة وتطهراً ، في آن واحد . فلم
يعطل طاقة بانية ، ولم يكبت استعداداً نافعاً . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفي الوقت ذاته حافظ
على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم ، الذي يهيم الأرواح في الدنيا
لمستوى نعيم الآخرة ، ويعد المخلوق الثاني في الأرض للحياة الباقية في دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها - صلى الله عليه وسلم -
إنساناً تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة
الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنساناً قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدي ،
قوي البنية ، سليم البناء ؛ صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقاً كاملاً سليماً . وهو في
ذات الوقت ضخم العاطفة ، حي الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقي والاستجابة . وهو
في الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوي الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه .. ثم هو
بعد ذلك كله .. النبي .. الذي تشرق روحه بالنور الكلي ، والذي تطبق روحه الإسراء والمعراج ، والذي
ينادي من السماء ، والذي يرى نور ربه ، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال
والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد - الجبل .. ! .. ثم تتوازن
في شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها ..

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتاباً مفتوحاً لأمته وللبشرية كلها ، تقرأ فيه صور هذه العقيدة ، وترى
فيه تطبيقاتها الواقعية . ومن ثم لا يجعل فيها سرّاً مخبوءاً ، ولا سترّاً مطويّاً . بل يعرض جوانب كثيرة منها في
القرآن ، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي . حتى مواضع الضعف البشري الذي
لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول - صلى الله عليه
وسلم - للناس !

إنه ليس له في نفسه شيء خاص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يختبئ جانب من حياته - صلى الله عليه

وسلم - أو يخبأ ؟ إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة ؛ وقد جاء - صلى الله عليه وسلم - ليعرضها للناس في شخصه ، وفي حياته ، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه . ولهذا خلق . ولهذا جاء . ولقد حفظ عنه أصحابه - صلى الله عليه وسلم - ونقلوا للناس بعدهم - جزاهم الله خيراً - أدق تفصيلات هذه الحياة . فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية ، لم تسجل ولم تنقل . . وكان هذا طرفاً من قدر الله في تسجيل حياة هذا الرسول ، أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة في حياة الرسول . فكان هذا إلى جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقي للبشرية إلى نهاية الحياة .

* * *

وهذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيئية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته - صلى الله عليه وسلم - وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك . . ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه .

والوقت الذي وقعت فيه الأحداث التي تشير إليها السورة ليس محدداً . ولكن بالرجوع إلى الروايات التي جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من زينب بنت جحش قطعاً . ولعله يحسن أن نذكر هنا ملخصاً عن قصة أزواج النبي ، وعن حياته البيئية يعين على تصور الحوادث والنصوص التي جاءت بصدد هذه السورة . ونعتمد في هذا الملخص على ما أثبتته الإمام ابن حزم في كتابه : « جوامع السيرة » . . وعلى السيرة لابن هشام مع بعض التعليقات السريعة :

أول أزواجه - صلى الله عليه وسلم - خديجة بنت خويلد . تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرون ، وسنها - رضي الله عنها - أربعون أو فوق الأربعين ، وماتت - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنوات ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . وقد تجاوزت سنه الخمسين . فلما ماتت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب . إنما كانت أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجري الحبشة . فلما توفي عنها ، تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

ثم تزوج عائشة - رضي الله عنها - بنت الصديق أبي بكر - رضي الله عنه وأرضاه - وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة . ولم يتزوج بكراً غيرها . وكانت أحب نسائه إليه ، وقيل كانت سنها تسع سنوات وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر . وتوفي عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ثم تزوج حفصة بنت عمر - رضي الله عنه - بعد الهجرة بستين وأشهر . تزوجها ثيباً . بعدما عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا . فوعده النبي خيراً منهما وتزوجها !

ثم تزوج زينب بنت خزيمة . وكان زوجها الأول عبدة بن الحارث بن عبد المطلب قد قتل يوم بدر . وتوفيت زينب هذه في حياته - صلى الله عليه وسلم - . وقيل كان زوجها قبل النبي هو عبد الله بن جحش الأسدي المستشهد يوم أحد . ولعل هذا هو الأقرب .

وتزوج أم سلمة . وكانت قبله زوجاً لأبي سلمة ، الذي جرح في أحد ، وظل جرحه يعاوده حتى مات به . فتزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرملة . وضم إليه عيالها من أبي سلمة .

وتزوج زينب بنت جحش . بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد بن حارثة فلم تستقم حياتهما فطلقها . وقد عرضنا قصتها في سورة الأحزاب في الجزء الثاني والعشرين ، وكانت جميلة وضيئة . وهي التي كانت عائشة - رضي الله عنها - تحس أنها تساميتها ، لنسبها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي بنت عمته ، ولو شاءتها ! ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد غزوة بني المصطلق في أواسط السنة السادسة الهجرية . قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها . قالت : « لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في أسهم الثابت ابن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تستعينه في كتابتها . قالت عائشة : فوالله ما هو إلا أن رأيته على باب حجرتي فكرهتها ! وعرفت أنه سيري منها - صلى الله عليه وسلم - ما رأيته ، فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله . أنا جويرية بنت الحارث بن أبي صرار سيد قومه . وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته على نفسي ، فجئت أستعينك على كتابتي . قال : « فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ؟ » قالت : نعم يا رسول الله . قال : « قد فعلت » ..

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بعد الحديبية . وكانت مهاجرة مسلمة في بلاد الحبشة ، فارتد زوجها عبد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها . فخطبها النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمهرها عنه نجاشي الحبشة . وجاءت من هناك إلى المدينة .

وتزوج إثر فتح خيبر بعد الحديبية صفية بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير . وكانت زوجة لكنانة ابن أبي الحقيق وهو من زعماء اليهود أيضاً . ويذكر ابن إسحاق في قصة زواجه - صلى الله عليه وسلم - منها : أنه أتى بها وبأخرى معها من السبي ، فر بهما بلال - رضي الله عنه - على قتلى من قتلى اليهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « اعزبوا عني هذه الشيطانة » وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لبلال - فيما بلغني - حين رأى بتلك اليهودية ما رأى : « أنزعت منك الرحمة يا بلال ؟ حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ » .

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث بن حزن . وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس . وكانت قبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند أبي رهم بن عبد العزى . وقيل حويطب بن عبد العزى . وهي آخر من تزوج صلى الله عليه وسلم .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه - صلى الله عليه وسلم - قصة وسبباً في زواجه منها . وهن فيمن عدا زينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث ، لم يكن شواوب ولا من يرغب فيهن الرجال لجمال . وكانت عائشة - رضي الله عنها - هي أحب نسائه إليه . وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسي وإنساني آخر - إلى جانب جاذبيتهم - ولست أحاول أن أنفي عنصر الجاذبية الذي لحظته عائشة في جويرية مثلاً ، ولا عنصر الجمال الذي عرفت به زينب . فلا حاجة أبداً إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبيهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه ! فقد اختير ليكون إنساناً . ولكن إنساناً رفيعاً . وهكذا كان . وهكذا كانت دوافعه في

حياته وفي أزواجه - صلى الله عليه وسلم - على اختلاف الدوافع والأسباب .
ولقد عاش في بيته مع أزواجه بشراً رسولاً كما خلقه الله ، وكما أمره أن يقول : « قل : سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » ..

استمتع بأزواجه وأمتعهن ، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - عنه : « كان إذا خلا بنسائه ألين الناس . وأكرم الناس ضحاكاً بساماً^١ » .. ولكنه إنما كان يستمتع بهن ويمتعهن من ذات نفسه ، ومن فيض قلبه ، ومن حسن أدبه ، ومن كريم معاملته . فأما حياتهن المادية فكانت في غالبها كفافاً حتى بعد أن فتحت له الفتوح وتبجح المسلمون بالغنائم والفبيء . وقد سبق في سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة في النفقة ، وما أعقب هذا الطلب من أزمة ، انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة ، أو المتاع والتسريح من عصمته - صلى الله عليه وسلم - فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة^٢ .

ولكن الحياة في جو النبوة في بيوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم تكن لتقضي على المشاعر البشرية ، والهواتف البشرية في نفوس أزواجه - رضي الله عنهن - فقد كان يبدر أو يشجر بينهن ، ما لا بد أن يشجر في قلوب النساء في مثل هذه الحال . وقد سلف في رواية ابن إسحاق عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كرهت جويرية بمجرد رؤيتها لما توقعته من استملاح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لها إذا رآها . وصح ما توقعته فعلاً ! وكذلك روت هي نفسها حادثاً لها مع صفية . قالت : « قلت للنبي - صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفية كذا وكذا . قال الراوي : تعني قصيرة ! فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته^٣ » .. كذلك روت عن نفسها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين نزلت آية التخيير التي في الأحزاب ، فاخترت هي الله ورسوله والدار الآخرة ، طلبت إليه ألا يخبر زوجاته عن اختيارها ! - وظاهر لماذا طلبت هذا ! - فقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى لم يبعثني معنفًا ، ولكن بعثني معلماً ميسراً . لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ..^٤ » .

وهذه الوقائع التي روتها عائشة - رضي الله عنها - عن نفسها - بدافع من صدقها ولتربيتها الإسلامية الناصعة - ليست إلا أمثلة لغيرها تصور هذا الجو الإنساني الذي لا بد منه في مثل هذه الحياة . كما تصور كيف كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤدي رسالته بالتربية والتعلية في بيته كما يؤديها في أمته سواء .

* * *

وهذا الحادث الذي نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التي كانت تقع في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية في السورة .

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ، ووقاية أنفسهم وأهلهم من النار .

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغير عن ابن سعد وابن عساكر عن عائشة .

(٢) ص ٢٨٥٣ - ٢٨٥٥ الجزء الثاني والعشرون .

(٣) أخرجه أبو داود .

(٤) أخرجه مسلم .

كما ورد مشهد للكافرين في هذه النار . واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثّل للكفر في بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثّل للإيمان في بيت كافر ، وكذلك عن مريم ابنة عمران التي تطهرت فتلقّت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ..

« يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم .

« وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت : من أنباك هذا ؟ قال : نبأني العليم الخبير .

« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تابعات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً » ..

وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخاري عند هذه الآية قال : حدثنا إبراهيم ابن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة ، قالت : كان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير^١ . إني أجد منك ريح مغافير . قال : « لا . ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لا تخبري بذلك أحداً » .. فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له : « لم تحرم ما أحل الله لك ؟ » .

ويبدو أن التي حدثها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتأمرة معها . فأطلع الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - على الأمر . فعاد عليها في هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشياً مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمساً مختصراً لتعرف أنه يعرف وكفى . فدهشت هي وسألته : « من أنباك هذا ؟ » .. ولعله دار في خلدها أن الأخرى هي التي نبأته ! ولكنه أجابها : « نبأني العليم الخبير » .. فالخبر من المصدر الذي يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعلم كل ما دار ، لا الطرف الذي حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث ، وما كشف عنه من تأمر ومكائدات في بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن غضب . فألى من نسائه لا يقربهن شهراً ، وهم بتطبيقهن - على ما تسامع المسلمون - ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدأ غضبه - صلى الله عليه وسلم - فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنده بعد عرض رواية أخرى للحادث .

وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائي من حديث أنس ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرماها . فأنزل الله عز وجل : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك » ...

وفي رواية لابن جرير ولاين إسحاق أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وطئ مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة . فغضبته وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتحريم مارية وحلف بهذا .

(١) المغافير : صمغ حلو الطعم كريحه الرائحة .

وكلفها كتمان الأمر . فأخبرت به عائشة .. فهذا هو الحديث الذي جاء ذكره في السورة .

وكلا الروایتين يمكن أن يكون هو الذي وقع . وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدي إلى طلاق زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - نظراً لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسناداً . وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التي ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى المستوى الذي يسود بيوت النبي ، مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئاً كبيراً .. والله أعلم أي ذلك كان .

أما وقع هذا الحادث - حادث إيلاء النبي - صلى الله عليه وسلم - من أزواجه ، فيصوره الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو يرسم كذلك جانباً من صورة المجتمع الإسلامي يومذاك .. قال : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور ، عن ابن عباس قال : « لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المراتين من أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللتين قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فتبرّز ، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين من المراتن من أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - اللتان قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) ؟ فقال عمر : واعجباً لك يا ابن عباس ! (قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه) قال : هي عائشة وحفصة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث ، قال : كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم . قال : وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال : فغضبت يوماً على امرأتي ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني . فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قالت : نعم ! قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم ! قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منك - يريد عائشة - قال : وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتيني بنجر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم نادى ، فخرجت إليه ، فقال : حدث أمر عظيم . فقلت : وما ذاك ؟ أ جاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساءه ! فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائناً . حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي . فقلت : أطلقكن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ؟ - فقالت : لا أدري . هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيت غلاماً أسود فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال : ذكرت لك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم . فجلست عنده قليلاً ، ثم غلبنى ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال : ذكرت لك له فصمت ! فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبنى ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال : ذكرت لك له فصمت ! فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني . فقال : ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه . فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلي وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساءهم ، فغضبت على امرأتي يوماً ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ؟ فإذا هي قد هلكت ؟ فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منك ! فتبسم أخرى . فقلت : أستأنس يا رسول الله ! قال : « نعم » فجلست ، فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا هيبة مقامه فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال : « أفي شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لي يا رسول الله .. وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل » .. (وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص) ..

* * *

هذه رواية الحادث في السير . فلننظر في السياق القرآني الجميل :
تبدأ السورة بهذا العتاب من الله سبحانه لرسوله - صلى الله عليه وسلم - :
« يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم ؟ قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم ، والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم » ..
وهو عتاب مؤثر موح . فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع . والرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعي ؛ إنما كان قد قرر حرمان نفسه . فجاء هذا العتاب يوحى بأن ما جعله الله حلالاً فلا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصدًا إرضاء لأحد .. والتعقيب : « والله غفور رحيم » .. يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذه ، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته . وهو إحياء لطيف .

فأما اليمين التي يوحى النص بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد حلفها ، فقد فرض الله تحلتها . أي كفارتها التي يحل منها . ما دامت في غير معروف والعدول عنها أولى . « والله مولاكم » .. فهو يعينكم على ضعفكم وعلى ما يشق عليكم . ومن ثم فرض تحلة الإيمان ، للخروج من العنت والمشقة .. « وهو العليم الحكيم » . يشرع لكم عن علم وعن حكمة ، ويأمركم بما يناسب طاقتكم وما يصلح لكم . فلا تحرموا إلا ما حرم ، ولا تحلوا غير ما أحل . وهو تعقيب يناسب ما قبله من توجيه .

ثم يشير إلى الحديث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله ، لأن موضوعه ليس هو المهم ، وليس هو العنصر الباقي فيه . إنما العنصر الباقي هو دلالته وآثاره :
« وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً » ..

ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة في تاريخ البشرية . الفترة التي يعيش فيها الناس مع السماء . والسماء تتدخل في أمرهم علانية وتفصيلاً . ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث

الذي أسره إلى بعض أزواجه . وأنه - صلى الله عليه وسلم - حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه . ترفعاً عن السرد الطويل ، وتجملاً عن الإطالة في التفصيل ؛ وأنه أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل :
« فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأني العليم الخبير » . .

والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة في حالة التآمر والمكائد المحبوكه وراء الأستار ! ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التي ربما نسيها أو غفلت عنها ، وترد القلوب بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن .

ويتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين كأن الأمر حاضر :
« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » . .

وحين نتجاوز صدر الخطاب ، ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله ، فقد بعدت عنه بما كان منها . . حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديداً رعبياً مخيفاً . .

ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالة الله وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير ! ليطيب خاطر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير !

ولا بد أن الموقف في حس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذه الحملة . ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء في الرواية على لسان الأنصاري صاحب عمر - رضي الله عنهما - وهو يسأله : جاءت غسان ؟ فيقول لا بل أعظم من ذلك وأطول . وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة ، وهجومها إذ ذاك أمر خطير . ولكن الأمر الآخر في نفوس المسلمين كان أعظم وأطول ! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير ، وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن . وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ! وهو تقدير يوحى بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور . وهو تقدير يلتقي بتقدير السماء للأمر ، فهو إذن صحيح قوي عميق .

وكذلك دلالة الآية التالية ، وتفصيل صفات النساء اللواتي يمكن أن يبدل الله النبي بهن من أزواجه ولو طلقهن . مع توجيه الخطاب للجميع في معرض التهديد :

« عسى زبه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك من مسلمات ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات وأبكارا » . .

وهي الصفات التي يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح .

الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذي يعمر القلب ، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل . والقنوت وهو الطاعة القلبية . والتوبة وهي الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة . والعبادة وهي أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياسة وهي التأمل والتدبر والتفكير في إبداع الله والسياسة بالقلب في ملكوته . وهن — مع هذه الصفات — من الثيبات ومن الأبكار . كما أن نساء الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر .

وهو تهديد لمن لا بد كان له ما يقتضيه من تأثير مكيداتهن في قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما كان ليغضب من قليل !

وقد رضيت نفس النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد نزول هذه الآيات ، وخطاب ربه له ولأهل بيته . واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ، وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه . وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره في إنشاء منهج الله في الأرض وتثبيت أركانه .

وبعد فهذه صورة من الحياة البتية لهذا الرجل الذي كان ينهض بإنشاء أمة ، وإقامة دولة ، على غير مثال معروف ، وعلى غير نسق مسبوق . أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة ، وتنشئ في الأرض مجتمعاً ربانياً ، في صورة واقعية يتأسى بها الناس .

وهي صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم . يزاول إنسانيته في الوقت الذي يزاول فيه نبوته . فلا تفترق هذه عن تلك ؛ لأن القدر جرى بأن يكون بشراً رسولاً ، حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير .

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل . ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنساناً . فلا تكبت طاقة من طاقاته البانية ، ولا تعطل استعداداً من استعداداته النافعة ؛ وفي الوقت ذاته تهذب وتربيته ، وترفع به إلى غاية مراقبه . وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به ، حتى استحالوا نسخاً حية منه . وكانت سيرة نبهم وحياته الواقعية ، بكل ما فيها من تجارب الإنسان ، ومحاولات الإنسان ، وضعف الإنسان ، وقوة الإنسان ، مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية ، مرتقية بها خطوة خطوة - كما يبدو في سيرة أهله وأقرب الناس إليه - كانت هي النموذج العملي للمحاولة الناجحة ، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية ، التي لا تعيش في هالات ولا في خيالات !

وتحققت حكمة القدر في تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة . وفي اختيار الرسول الذي يطبق تلقياً وترجمتها في صورة حية . وفي جعل حياة هذا الرسول كتاباً مفتوحاً يقرؤه الجميع . وتراجعه الأجيال بعد الأجيال . . .

* * *

وفي ظلال هذا الحادث الذي كان وقعه عميقاً في نفوس المسلمين ، يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبههم في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير ، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار . ويرسم لهم مشهداً من مشاهدها . وحال الكفار عندها . وفي ظلال الدعوة إلى التوبة التي وردت في سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة ، ويصور لهم الجنة التي تنتظر التائبين . ثم يدعو النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى جهاد الكفار والمنافقين . وهذا هو المقطع الثاني في السورة :

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون . يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير . يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير . . »

سورة التحريم

إن تبة المؤمن في نفسه وفي أهله تبة ثقيلة رهبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك . إنها نار . فطبعة متسعة : « وقودها الناس والحجارة » .. الناس فيها كالحجارة سواء . في مهانة الحجارة . وفي رخص الحجارة ، وفي قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفضعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل ما بها وما يلبسها فظيع رهيب : « عليها ملائكة غلاظ شداد » . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون .. « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .. فن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم ، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم .. وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة . وعلى المؤمن أن يقي نفسه وأن يقي أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار . فها هم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف ، فلا يؤبه لاعتذارهم ، بل يجبهون بالتئيس :

« يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل . وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار !

فكيف يقي المؤمنون أنفسهم وأهلهم من هذه النار ؟ إنه يبين لهم الطريق ، ويطمعهم بالرجاء :
« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » ..

هذا هو الطريق .. توبة نصوح .. توبة تنصح القلب وتخلصه ، ثم لا تغشه ولا تخدعه .
توبة عن الذنب والمعصية ، تبدأ بالندم على ما كان ، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة ، فهي عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها ، وتحضه على العمل الصالح بعدها . فهذه هي التوبة النصوح .
التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب .

فإذا كانت هذه التوبة فهي مرجوة إذن في أن يكفر الله بها السيئات . وأن يدخلهم الجنات . في اليوم الذي يخزي فيه الكفار كما هم في المشهد الذي سبق في السياق . ولا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه .

وإنه لإغراء مطمع ، وتكريم عظيم ، أن يضم الله المؤمنين إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة في يوم الخزي . ثم يجعل لهم نوراً « يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » . نوراً يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصب الرهيب . ونوراً يهتدون به في الزحام المريج . ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف !

وهم في رهبة الموقف وشدة يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله : « يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير » .. وإلهمهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور .

فأين هذا من النار التي وقودها الناس والحجارة ؟

إن هذا الثواب ، كذلك العقاب ، كلاهما يصور تبة المؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار ، وإنا لهم

هذا النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

وفي ظلال ذلك الحادث الذي كان في بيوت النبي - صلى الله عليه وسلم - ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص .

إن المؤمن مكلف هداية أهله ، وإصلاح بيته ، كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه .
إن الإسلام دين أسرة - كما أسلفنا في سورة الطلاق - ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته ، وواجبه في بيته .
والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي ..
المجتمع الإسلامي ..

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة . ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها . وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه ، فلا يصعب على طارق ، ولا يستعصي على مهاجم !

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله . واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً .

ولا بد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة . لا بد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات . فعبثاً يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامي بمجموعة من الرجال . لا بد من النساء في هذا المجتمع فهن الحارسات على النشء ، وهو بذور المستقبل وثماره .

ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء ؛ وكان ينظم البيوت ، ويقىمها على المنهج الإسلامي ، وكان يحمل المؤمنين تبعة أهلهم كما يحملهم تبعة أنفسهم : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » ..
هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيداً . إن أول الجهد ينبغي أن يوجه إلى البيت . إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد ؛ وإلى الأهل بعامه . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم . وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيؤخر طويلاً بناء الجماعة الإسلامية . وسيظل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات !

وفي الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه .. كان قد أنشئ مجتمع مسلم - في المدينة - يهيم عليه الإسلام . يهيم عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية ، ويهيم عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه ، مرجع الرجال والنساء جميعاً ، إلى الله ورسوله . وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير .. وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلاً بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الإسلام . وكان الأمر سهلاً بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام ..

نحن الآن في موقف متغير . نحن نعيش في جاهلية . جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك ! !

والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلي ، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تليي الإسلام ، سواء اهتدت إليه بنفسها ، أو هداها إليه رجلها . زوجها أو أخوها أو أبوها ..

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع . كلهم . يتحاضرون إلى تصور واحد ، وحكم واحد ، وطابع واحد .

فأما هنا فالرجل يتحاكم إلى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل !

وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . إن عليه أن يقي نفسه النار ! ثم عليه أن يقي أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف !

فينبغي له أن يدرك ثقل هذا الواجب ليبدل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الأولى . ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشئ بيتاً أن يبحث أولاً عن حارسه للقلعة ، تستمد تصورها من مصدر تصوره هو .. من الإسلام .. وسيضحى في هذا بأشياء : سيضحى بالالتعاضد الكاذب في المرأة . سيضحى بخضراء الدمن ! سيضحى بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع . ليبحث عن ذات الدين ، التي تعينه على بناء بيت مسلم ، وعلى إنشاء قلعة مسلمة ! ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الإسلامي أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة في أيديهم وأن عليهم أن يتوجهوا إليهم وإليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أي أحد آخر . وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » ، ونرجع الكرة - بهذه المناسبة - إلى طبيعة الإسلام التي تقتضي قيام الجماعة المسلمة التي يهيمن عليها الإسلام ، والتي يتحقق فيها وجوده الواقعي . فهو مبني على أساس أن تكون هناك جماعة . الإسلام عقيدتها ، والإسلام نظامها ، والإسلام شريعته ، والإسلام منهجها الكامل الذي تستقي منه كل تصوراتها^١ .

هذه الجماعة هي المحضن الذي يحمي التصور الإسلامي ويحملة إلى النفوس ، ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلي ، كما يحميها من فتنة الإيذاء سواء .

ومن ثم تتبين أهمية الجماعة المسلمة التي تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة ، محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلي حولها . فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الإسلامي وبين تقاليد المجتمع الجاهلي الضاغطة الساحقة . ويجد فيها الفتى المسلم شريكة في العيش المسلم ، أو في القلعة المسلمة ، التي يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الإسلامي .

إنها ضرورة - وليست نافلة - أن تقوم جماعة مسلمة ، تتواصى بالإسلام ، وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراتها كلها ، فتعيش بها فيما بينها ، وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعو إليها ، في صورة واقعية يراها من يدعون إليها من المجتمع الجاهلي الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله . إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام . حتى تنشأ الأجيال في ظله ، في حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب ..

وفي سبيل حماية الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمجاهدة أعدائها : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » ..

وهي لفظة لها معناها وقيمتها بعدما تقدم من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار . وبالتوبة النصوح التي تكفر عنهم السيئات وتدخلهم الجنة تجري من تحتها الأنهار ..

لها معناها وقيمتها في ضرورة حماية المحضن الذي تم فيه الوقاية من النار . فلا تترك هذه العناصر المفسدة

(١) الظلال - هذا الجزء - سورة الصف ص ٣٥٥٢ - ٣٥٥٣ .

الجائرة الظالمة ، تهاجم المعسكر الإسلامي من خارجه كما كان الكفار يصنعون . أو تهاجمه من داخله كما كان المنافقون يفعلون .

وتجمع الآية بين الكفار والمنافقين في الأمر بجهادهم والغلبة عليهم . لأن كلا من الفريقين يؤدي دوراً مماثلاً في تهديد المعسكر الإسلامي ، وتحطيمه أو تفتيته . فجهادهم هو الجهاد الوافي من النار . وجزاؤهم هو الغلبة عليهم من رسول الله والمؤمنين في الدنيا .

« ومأواهم جهنم وبئس المصير » في الآخرة !

وهكذا تتناسق هذه الجولة فيما بين آياتها واتجاهاتها ؛ كما تتناسق بجملتها مع الجولة الأولى في السياق ..

* * *

ثم نجيء الجولة الثالثة والأخيرة . وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى . إذ نتحدث عن نساء كافرات في بيوت أنبياء . ونساء مؤمنات في وسط كفار :

« ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين .. وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه . وكانت من القانتين » .. والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ، أنها كانت خيانة في الدعوة ، وليست خيانة الفاحشة . امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساعرين من قومه ؛ وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه !

والمأثور كذلك عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة في قصره - ولعلها كانت أسبوية من بقايا المؤمنين بدين سماوي قبل موسى . وقد ورد في التاريخ أن أم « أمنحوتب الرابع » الذي وحد الآلهة في مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس ، وسمى نفسه « إخناتون » .. كانت أسبوية على دين غير دين المصريين .. والله أعلم إن كانت هي المقصودة في هذه السورة أم إنها امرأة فرعون موسى .. وهو غير « أمنحوتب » هذا .. ولا يعيننا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فرعون . فالإشارة القرآنية تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص . والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة ..

إن مبدأ التبعية الفردية يراد إبرازه هنا ، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار . كما يراد أن يقال لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - وأزواج المؤمنين كذلك : إن عليهن أنفسهن بعد كل شيء . فهن مسؤولات عن ذواتهن ، ولن يعفيهن من التبعية أنهن زوجات نبي أو صالح من المسلمين !

وها هي ذي امرأة نوح . وكذلك امرأة لوط . « كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين » .. « فخانتاهما » .. « فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً » .. « وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » ..

فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان . وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء !

وها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه .. في قصر فرعون .. عن طلب النجاة وحدها .. وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه . وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به : « ونجني من فرعون

سورة التحريم

وعمله .. وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم : « ونجني من القوم الظالمين » ..
ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره . فقد كانت امرأة
فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي .. ولكنها استعلت على
هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شراً وبنساً وبلاء تستعيز بالله منه ، وتفتلت
من عقابيله ، وتطلب النجاة منه !

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية .. وهذا فضل آخر عظيم . فالمرأة - كما أسلفنا - أشد شعوراً
وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته . ولكن هذه المرأة .. وحدها .. في وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ،
وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، والمقام الملوكي . في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء .. وحدها ..
في خضم هذا الكفر الطاغوي !

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوقات ، وكل
هذه الهوائف . ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد . الذي تتردد كلماته في جنبات الكون
وهي تنتزل من الملأ الأعلى ..

« ومريم ابنة عمران » .. إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التي قصها الله في سور أخرى . ويذكر هنا
تطهرها : « التي أحصنت فرجها » .. يبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة ! « فنفضنا فيه من روحنا » . ومن هذه
النفخة كان عيسى عليه السلام ، كما هو مفصل في السورة المفصلة لهذا المولد « سورة مريم » فلا نستطرد
معه هنا تمشياً مع ظل النص الحاضر ، الذي يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها : « وصدقت
بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » ..

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في
الذكر . بسبب ملايسات حياتها التي أشرنا إليها . وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة
يضرهما الله لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر السورة ،
ويضرهما للمؤمنات من بعد في كل جيل ..

* * *

وأخيراً فإن هذه السورة - وهذا الجزء كله - قطعة حية من السيرة ، رسمها القرآن بأسلوبه الموحى . لا تملك
روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها . فالتعبير القرآني أكثر إحياء ، وأبعد آماداً ، وهو يستخدم
الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة ، الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان .. كما هو شأن القرآن ..

* * *

انتهى الجزء الثامن والعشرون
ويليه الجزء التاسع والعشرون
مبدوءاً بسورة تبارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ سُورَةِ الْمُلْكِ

إِلَى سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ

الجزء التاسع والعشرون

(٦٧) سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ
 تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾
 وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَدِّحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ
 كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ
 الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ
 اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾
 فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾
 وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾
 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمِنْكُمْ مَنِ فِي
 السَّمَاءِ أَنْ يُحْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْكُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ
 كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ ﴿١٨﴾

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافًى وَيَقِظْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٦﴾ أَمَّنْ هَذَا
 الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٧﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
 رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩﴾
 قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢١﴾

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا
 رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٤﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾
 قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٦﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٢٧﴾

هذا الجزء كله من السور المكية . كما كان الجزء الذي سبقه كله من السور المدنية . ولكل منهما طابع مميز ،
 وطعم خاص . . . وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من القرآن كمطلع سورة « المدثر » ومطلع
 سورة « المزمل » . كما أن فيه سوراً يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالي ثلاث سنوات كسورة « القلم » .
 وبحوالي عشر سنوات كسورة « الجن » التي يروى أنها نزلت في عودة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من
 الطائف ، حيث أودى من ثقيف . ثم صرف الله إليه نفراً من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن ، مما حكته
 سورة الجن في هذا الجزء . وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبي طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين . وإن
 كانت هناك رواية أخرى هي الأرجح بأن السورة نزلت في أوائل البعثة .

والقرآن المكي يعالج - في الغالب - إنشاء العقيدة . في الله وفي الوحي ، وفي اليوم الآخر . وإنشاء التصور المنبثق
 من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه . والتعريف بالخالق تعريفاً يجعل الشعور به حياً في القلب ، مؤثراً
 موجهاً موحياً بالمشاعر اللاتقة بعبد يتجه إلى رب ، وبالأدب الذي يلزمه العبد مع الرب ، وبالقيم والموازين التي
 يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص . وقد رأينا نماذج من هذا في السور المكية السابقة ، وسنرى نماذج
 منه في هذا الجزء .

والقرآن المدني يعالج - في الغالب - تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور وهذه الموازين في الحياة الواقعية ؛

الجزء التاسع والعشرون

وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشرعية في معترك الحياة ، والنهوض بتكليفها في عالم الضمير وعالم الظاهر سواء . وقد رأينا نماذج من هذا في السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء الماضي .

* * *

وهذه السورة الأولى - سورة تبارك - تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم في السماوات ، وإلى حياة في الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان في عالم الأرض كالجن والطير ، وفي العالم الآخر كجهنم وخزنتها . وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة ، في هذه الأرض . كما أنها تثير في حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وهي تهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وطباق الجو ، ومسارب الماء ، وخفايا الغيوب ، قترى هناك يد الله المبدعة ، وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة الله . وتتووب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ، وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض - على سعتها - إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء .

الموت والحياة أمران مألوفان مكرووران . ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيما وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه ، ومن حكمة الله وتدييره : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » .

والسما خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التي أبدعته ، ولا تلتفت لما فيه من كمال . ولكن السورة تبعث حركة التأمل والاستغراق في هذا الجمال والكمال وما وراءها من حركة وأهداف : « الذي خلق سبع سماوات طباقاً . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير .. ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين .. » .

والحياة الدنيا تبدو في الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية المطاف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والانتظار : « وأعدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء ؛ إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ! » .

والنفوس في الجاهلية لا تكاد تتجاوز هذا الظاهر الذي تعيش فيه ، ولا تلقي بالاً إلى الغيب وما يحتويه . وهي مستغرقة في الحياة الدنيا مجبوسة في قفص الأرض الثابتة المستقرة . فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التي لم ترها عين ، ولكنها قادرة تفعل ما تشاء حيث تشاء وحين تشاء ؛ وتهز في حسهم هذه الأرض الثابتة التي يطمئنون إليها ويستغرقون فيها « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ هو الذي جعل لكم الأرض

ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور. أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور؟ أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً؟ فستعلمون كيف نذير» ..

والطير . إنه خلق يروونه كثيراً ولا يتدبرون معجزته إلا قليلاً . ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر ، وترى قدرة الله الذي صور وقدر : « أألم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير » .

وهم آمنون في دارهم ، مطمئنون إلى مكانهم ، طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره . ولكن السورة تهزم من هذا السبات النفسي ، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجوف من حولهم ، تهزم على قهر الله وجبروته الذي لا يحسبون حسابه : « أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا في غرور » .

والرزق الذي تناله أيديهم ، إنه في حسمهم قريب الأسباب ، وهي بينهم تنافس وغلاب . ولكن السورة تمد أبصارهم بعيداً هنالك في السماء ، ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون : « أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو ونفور » ..

وهم سادرون في غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون . فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقاً ، في صورة متحركة موحية : « أفن يمشي مكباً على وجهه أهدى ؟ أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم ؟ » .

وهم لا ينتفعون بما رزقهم الله في ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك ، ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب . فالسورة تذكرهم بنعمة الله فيما وهبهم ، وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة في تنوير المستقبل المغيب وراء الحاضر الظاهر ، وتدبر الغاية من هذه البداية : « قل : هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون . قل : هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون » ..

وهم يكذبون بالبعث والحشر ، ويسألون عن مواعده . فالسورة تصوره لهم واقعاً مفاجئاً قريباً يسوؤهم أن يكون : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون ! » ..

وهم يتربصون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذي يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود ! فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيما ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب ، فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب : « قل : أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أأرحمنا فن يجر الكافرين من عذاب أليم ؟ قل : هو الرحمن آمناً به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين » .

وتنذرهم السورة في ختامها بتوقع ذهاب الماء الذي به يعيشون ، والذي يجريه هو الله الذي به يكفرون ! « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ؟ » .. إنها حركة . حركة في الحواس ، وفي الحس ، وفي التفكير ، وفي الشعور .

* * *

ومفتاح السورة كلها ، ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها ، هو مطلعها الجامع الموحى :

« تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » ..

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة ، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نهبت القلوب إليها ..

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما . وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها . وكان العلم بالسر والجهر . وكان جعل الأرض ذلولاً للبشر . وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير في السماء . وكان القهر والاستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الذرء في الأرض والحشر . وكان الاختصاص بعلم الآخرة . وكان عذاب الكافرين . وكان الماء الذي به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد ..

فكل حقائق السورة وموضوعاتها ، وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير : « تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » !!

وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى في السياق ، وتتدفق بلا توقف ، مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل ، مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع ! ويستحسن معه استعراضها في سياقها بالتفصيل :

* * *

« تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » ..

هذه التسيحة في مطلع السورة توحى بزيادة بركة الله ومضاعفتها ، وتمجيد هذه البركة الربانية الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحي بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتمجيدها في الكون بعد تمجيدها في جناب الذات الإلهية . وهي ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ، ويعمر بها قلب كل موجود . وهي تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم ، من الكتاب المكنون ، إلى الكون المعلوم .

« تبارك الذي بيده الملك » .. فهو المالك له ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه .. وهي حقيقة . حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير ؛ وتخليه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك ؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد الفريد ! « وهو على كل شيء قدير » .. فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يحول دون إرادته شيء ، ولا يحد مشيئته شيء . يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره ؛ لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود .. وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تطلق تصويره لمشئته الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال ! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال .. والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار . فيتوقعون من قدرة الله كل شيء بلا حدود . ويكفون لقدرة الله كل شيء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود .

* * *

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » ..

ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له ، وآثار قدرته على كل شيء وطلاقة إرادته .. أنه خلق الموت

والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية ، التي تنشئ هذه الحقيقة في التصور الإنساني ؛ وتثير إلى جانبها البقطة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست المسألة مصادفة بلا تدير . وليست كذلك جزافاً بلا غاية . إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » .. واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبداً يقظاً حذراً متلفتاً واعياً للصغيرة والكبيرة في النية المستسرة والعمل الظاهر . ولا يدعه يغفل أو يلهو . كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح . ومن ثم يجيء التعقيب : « وهو العزيز الغفور » ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه . فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح . فإذا استيقظ القلب ، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار ، وحذر وتوقى ، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح !

إن الله في الحقيقة التي يصورها الإسلام لتستقر في القلوب ، لا يطارد البشر ، ولا يعنتهم ، ولا يحب أن يعذبهم . إنما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم ؛ وأن يحققوا تكريم الله لهم بنفخة روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه . فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابعة والعون الكبير والسماحة الواسعة والعفو عن كثير .

* * *

ثم يربط هذه الحقيقة بالكون كله في أكبر وأرفع مجاليه ؛ كما يربط به من الناحية الأخرى حقيقة الجزاء في الآخرة ، بعد الابتلاء بالموت والحياة :

« الذي خلق سبع سماوات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ، وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شبهاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ ، كلما ألتي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء ، إن أتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ! » .

وكل ما في هذه الآيات آثار المدلول الآية الأولى ، ومظاهر للهيمنة المتصرفة في الملك ، وللقدرة التي لا يقيدتها قيد . ثم هي بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق الموت والحياة للابتلاء ، ثم الجزاء ..

والسماوات السبع الطباق التي تشير إليها الآية لا يمكن الجزم بمدلولها ، استقاء من نظريات الفلك ، فهذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح ، كلما تقدمت وسائل الرصد والكشف . ولا يجوز تعليق مدلول الآية بمثل هذه الكشف القابلة للتعديل والتصحيح . ويكفي أن نعرف أن هناك سبع سماوات . وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة .

والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله ، في السماوات بصفة خاصة وفي كل ما خلق بصفة عامة . يوجه النظر إلى خلق الله ، وهو يتحدى بكماله كمالاً يرد البصر عاجزاً كليلاً مهوراً مدهوشاً .

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .. فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب .. « فارجع البصر » .. وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت « هل ترى من فطور ؟ » .. وهل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل ؟ « ثم

ارجع البصر كرتين « فربما فاتك شيء في النظرة السابقة لم تتبينه ، فأعد النظر ثم أعد « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » ..

وأسلوب التحدي من شأنه أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله . وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأمل المتدبرة هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها . فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق ، الذي لا تشبع العين من تملي جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقي إبحاءاته وإيماءاته ؛ ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته . والذي يعيش منه من يتأمله بهذه العين في مهرجان إلهي باهر رائع ، لا تخلق بدائعه ، لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل .

والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها - يدركه الدهش والذهول . ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم . فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل ؛ فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يتفتح ويستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي ؛ قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب .

ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون ، وإلى تملي مشاهدته وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً ، وفي كل عصر . يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار . وهو يخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يخط حرفاً ، كما يخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء . وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا الكون ، وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع . والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال . ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر إلى كمالها :

« ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح » ..

وما السماء الدنيا ؟ لعلها هي الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن . ولعل المصابيح المشار إليها هنا هي النجوم والكواكب الظاهرة للعين ، التي نراها حين ننظر إلى السماء . فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر في السماء . وما كانوا يملكون إلا عيونهم ، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء .

ومشهد النجوم في السماء جميل . ما في هذا شك . جميل جمالاً يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ؛ ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمرية إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب .. بل إنه ليختلف من ساعة لساعة . ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية .. وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

هذه النجمة الفريدة التي توصف هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتهم بالمحبة والنداء !

وهاتان النجمتان المنفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان !

وهذه المجموعات المتضاممة المتناثرة هنا وهناك ، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء . وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان !

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة . والزاهي المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفاني الذي يدلف للفناء ليلة .. !

وهذا الفضاء الواسع الذي لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده .
إنه الجمال . الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه ، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ
والعبارات !

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ، وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق
وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه
حينئذ يصل إلى النقطة التي يتبأ فيها للحياة الخالدة ، في عالم طليق جميل ، بريء من شوائب العالم الأرضي
والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشري هي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في
الكون . ذلك أنها هي اللحظات التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه .

* * *

ويذكر النص القرآني هنا أن هذه المصاييح التي زين الله السماء الدنيا بها هي كذلك ذات وظيفة أخرى :
« وجعلناها رجوماً للشياطين » ..

وقد جرينا في هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشيء في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفاً من خبرها ؛
وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعداه . وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور .

فنحن نؤمن أن هناك خلقاً اسمهم الشياطين ، وردت بعض صفاتهم في القرآن ، وسبقت الإشارة إليها في
هذه الظلال ، ولا نزيد عليها شيئاً ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصاييح التي تزين السماء الدنيا رجوماً
للشياطين ، في صورة شهب كما جاء في سورة أخرى : « وحفظاً من كل شيطان مارد » ... « إلا من خطف الخطفة
فأتبعه شهاب ثاقب » .. كيف ؟ من أي حجم ؟ في أية صورة ؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئاً ، وليس
لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه في مثل هذا الشأن . فلنعلم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه . وهذا هو المقصود . ولو علم
الله أن هناك خيراً في الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه . فالتنا نحن نحاول ما لم يعلم الله أن فيه
خيراً ؟ : في مثل هذا الأمر . أمر رجم الشياطين ؟ !

ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم :

« وأعدنا لهم عذاب السعير » ..

فالرجوم في الدنيا وعذاب السعير في الآخرة لأولئك الشياطين . ولعل مناسبة ذكر هذا ، الذي أعده الله للشياطين
في الدنيا والآخرة هي ذكر السماء أولاً ، ثم ما يجيء بعد من ذكر الذين كفروا . والعلاقة بين الشياطين والذين
كفروا علاقة ملحوظة . فلما ذكر مصاييح السماء ذكر اتخاذها رجوماً للشياطين . ولما ذكر ما أعد للشياطين
من عذاب السعير ذكر بعده ما أعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين :

« وللذين كفروا برهيم عذاب جهنم وبئس المصير » ..

ثم يرسم مشهداً لجهنم هذه ، وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحق شديد :

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » ..

وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، فترفع أنفاسها في شهيق وتفور ؛ ويملاً جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق
من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحق على الكافرين !
والتعبير في ظاهره يبدو مجازاً تصويرياً لحالة جهنم . ولكنه - فيما نحس - يقرر حقيقة . فكل خليفة من خلائق

الله حية ذات روح من نوعها . وكل خليفة تعرف ربها وتسبح بحمده ؛ وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتغيظ لهذا الجحود المنكر الذي تنكره فطرتها وتنفر منه روحها . وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود .

فقد جاء بصريح العبارة في القرآن : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .. وورد كذلك : « يا جبال أوبي معه والطير » .. وهي تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل .

كذلك ورد « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين » .. مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله . ولكن هذا التأويل لا ضرورة له . بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح .

ووردت صفة جهنم هذه . كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها : « لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخرب الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً » ..

وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة ، حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه ، وتسبيح كل شيء بحمده . ودهشة الخلائق وارتباها لشذوذ الإنسان حين يكفر ، ويشذ عن هذا الموكب ؛ وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان في غيظ وحنق ؛ كالذي يطعن في عزيز عليه كريم على نفسه ، فيغتاظ ويحنق ، ويكاد من الغيظ يتمزق . كما هو حال جهنم وهي : « تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » .

كذلك نلمح هذه الظاهرة في خزنة جهنم :

« كلما ألتى فيها فوج سألهم خزنتها . ألم يأتكم نذير ؟ » ..

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق . كما هي مشاركة لها في التعذيب ، وليس أمر من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب !

والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحمق والغفلة ، بعد التبعج والإنكار واتهام الرسل بالضللال :

« قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ، وقلنا : ما نزل الله من شيء . إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ! » ..

فالذي يسمع أو يعقل ، لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء . ولا يحدد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ولا يسارع باتهام الرسل بالضللال على هذا النحو المتبجح الوقح ، الذي لا يستند في الإنكار إلى دليل . ثم ينكرو ويدعي ذلك الادعاء العريض على رسل الله الصادقين يقول : « ما نزل الله من شيء : إن أنتم إلا في ضلال كبير ! » فاعترفوا بذنبيهم فسحقاً لأصحاب السعير » ..

والسحق البعد . وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبيهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعدون من رحمته . لا رجاء لهم في مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . ويا لها من صحبة ! ويا له من مصير !

وهذا العذاب ، عذاب السعير ، في جهنم التي تشبه بأنفاسها وهي تفور ، عذاب شديد مروع حقاً . والله لا يظلم أحداً . ونحسب - والله أعلم - أن النفس التي تكفر بربها - وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله - هي

نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود ، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم . وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار ، إلى غير نجاة منها ولا فرار !
والنفس التي تكفر بالله في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه ، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسختها وشناعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يسبح بحمد ربه ، وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التي تشده إلى محور الوجود . . ما عدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود ، الآبدة الشريرة ، الجاسية الممسوخة النفور . فأى مكان في الوجود كله تنتهي إليه ، وهي مبتوة الصلة بكل شيء في الوجود ؟ إنها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتلمظة ، الحارقة ، المهذرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة ؛ بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة !

والمألوف في سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين في مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين في مقابل صفحة الكافرين ، تنمة لمدلول الآية الثانية في السورة : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » .. بذكر الجزاء بعد ذكر الابتلاء :

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير » ..

والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذي لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم في خفية عن الأعين ، وكلاهما معنى كبير ، وشعور نظيف ، وإدراك بصير . يؤهل لهذا الجزاء العظيم الذي يذكره السياق في إجمال : وهو المغفرة والتكفير ، والأجر الكبير .

ووصل القلب بالله في السر والخفية ، وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون ، هو ميزان الحساسية في القلب البشري وضمانة الحياة للضمير . . قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : قالوا : يا رسول الله إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقتنا كنا على غيره . قال : « كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا : الله ربنا في السر والعلانية . قال : « ليس ذلكم النفاق » ..

فالصلة بالله هي الأصل . فتى انعقدت في القلب فهو مؤمن صادق موصول .

* * *

وهذه الآية السابقة تربط ما قبلها في السياق بما بعدها ، في تقرير علم الله بالسر والظهر ، وهو يتحدى البشر وهو الذي خلق نفوسهم ، ويعلم مداخلها ومكائنها ، التي أودعها إياها :

« وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ؟ » . أسروا أو اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما هو أخفى من الجهر والسر . « إنه عليم بذات الصدور » التي لم تفارق الصدور ! عليم بها ، فهو الذي خلقها في الصدور ، كما خلق الصدور ! « ألا يعلم من خلق ؟ » ألا يعلم وهو الذي خلق ؟ « وهو اللطيف الخبير ؟ » الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفي المستور .

إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أو سر أو نية في الضمير ، يبدون مضحكين ! فالضمير الذي يخفون فيه نيتهم من خلق الله ، وهو يعلم دروبه وخفائاه . والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فإذا يخفون ؟ وأين يستخفون ؟

والقرآن يعنى بتقرير هذه الحقيقة في الضمير . لأن استقرارها فيه ينشئ له إدراكاً صحيحاً للأمور . فوق ما يودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى ، تناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض . أمانة العقيدة وأمانة العدالة ، وأمانة التجرد لله في العمل والنية . وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سرورية هو من خلق الله الذي يعلمه الله . وهو اللطيف الخبير . .
عندئذ يتقي المؤمن النية المكنونة ، والمهاجس الدفين ، كما يتقي الحركة المنظورة ، والصوت الجهر . وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر والجهر ، الله الذي خلق الصدور فهو يعلم ما في الصدور .

* * *

ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم التي خلقها الله ، إلى الأرض التي خلقها لهم ، وذلكها وأودعها أسباب الحياة :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » . .
والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ؛ وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ، واستغلالهم ل تربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعاً . . ينسون نعمة الله في تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، في هذا التعبير الذي يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول .
والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى ، هذه الأرض المذلة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة ، وبالفلك التي تمخر البحار . والمذلة للزرع والجني والحصاد . والمذلة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والنبات .
وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم - فيما اهتدى إليه حتى اليوم - تفصيلاً يمد في مساحة النص القرآني في الإدراك .

فما يقوله العلم في مدلول الأرض الذلول : إن هذا الوصف : « ذلولاً » . . الذي يطلق عادة على الدابة ، مقصود في إطلاقه على الأرض ! فالأرض هذه التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة ، هي دابة متحركة . . بل رامحة راكضة مهطعة !! وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقى براكبها عن ظهرها ، ولا تتعثر خطاها ، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ! ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول !

إن هذه الدابة التي نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة ، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة . ثم تركض هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة ، مبتعدة نحو برج الجبار في السماء . . ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمناً مستريحاً مطمئناً معافى لا تتمزق أوصاله ، ولا تتناثر أشلائه ، بل لا يرتج مخه ولا يدوخ ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول !

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة . وقد عرفنا أثر اثنتين منها في حياة هذا الإنسان ، بل في الحياة كلها على ظهر هذه الأرض . فدورة الأرض حول نفسها هي التي ينشأ عنها الليل والنهار . ولو كان الليل سرمداً لجمدت الحياة كلها من البرد ، ولو كان النهار سرمداً لاحتقرت الحياة كلها من الحر . . ودورتها حول الشمس هي التي تنشأ عنها الفصول . ولودام فصل واحد على الأرض ما قامت الحياة في شكلها هذا كما أرادها الله . أما الحركة الثالثة -

فلم يكشف ستار الغيب عن حكمته بعد . ولا بد أن لها ارتباطاً بالتناسق الكوني الكبير .
وهذه الدابة الذلول التي تتحرك كل هذه الحركات الهائلة في وقت واحد ، ثابتة على وضع واحد في أثناء الحركة - يحدده ميل محورها بمقدار ٢٣,٥° لأن هذا الميل هو الذي تنشأ عنه الفصول الأربعة مع حركة الأرض حول الشمس ، والذي لو اختلف في أثناء الحركة لاختلت الفصول التي ترتب عليها دورة النبات بل دورة الحياة كلها في هذه الحياة الدنيا !

والله جعل الأرض ذلولاً للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى ، كما جعل لها ضغطاً جويّاً يسمح بسهولة الحركة فوقها . ولو كان الضغط الجوي أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير ويتنقل - حسب درجة ثقل الضغط - فإما أن يسحقه أو يعوقه . ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويقه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله ، كما يقع لمن يرتفعون في طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء !

والله جعل الأرض ذلولاً ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح . ولو كانت صخوراً صلبة - كما يفترض العلم بعد برودها وتجمدها - لتعذر السير فيها ، ولتعذر الإنبات . ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هي التي فتت هذه الصخور الصلدة ، وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة . وأنشأ ما فيها من النبات والأرزاق التي يحلبها راكبو هذه الدابة الذلول !

والله جعل الأرض ذلولاً بأن جعل الهواء المحيط بها محتوياً للعناصر التي تحتاج الحياة إليها ، بالنسب الدقيقة التي لو اختلفت ما قامت الحياة ، وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس . فنسبة الأكسجين فيه هي ٢١٪ تقريباً ونسبة الأزوت أو النروجين هي ٧٨٪ تقريباً والبقية من ثاني أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى . وهذه النسب هي اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض !

والله جعل الأرض ذلولاً بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة .. ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر ، وبعد الأرض عن الشمس والقمر . ودرجة حرارة الشمس . وسمك قشرة الأرض . ودرجة سرعتها . وميل محورها . ونسبة توزيع الماء واليابس فيها . وكثافة الهواء المحيط بها .. إلى آخره .. إلى آخره . وهذه الموافقات مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولاً . وهي التي جعلت فيها رزقاً ، وهي التي سمحت بوجود الحياة ، وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص .

والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق ليعيها كل فرد وكل جيل بالقدر الذي يطيق ، وبالقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته ، ليشعر بيد الله - الذي بيده الملك - وهي تتولاه وتتولى كل شيء حوله ، وتذلّل له الأرض ، وتحفظه وتحفظها . ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الكون كله وتحطم بمن عليه وما عليه ! فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمن الرحيم بالمشي في مناكبها والأكل من رزقه فيها :
« فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .

والمناكب المرتفعات ، أو الجوانب . وإذا أذن له بالمشي في مناكبها فقد أذن له بالمشي في سهولها وبطاحها من باب أولى . فتي أذن له في الشمس منها فقد أذن له في الذلول !

والرزق الذي فيها كله من خلقه ، وكله من ملكه ، وهو أوسع مدلولاً مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق . فليس هو المال الذي يجده أحدهم في يده ، ليحصل به على حاجياته ومتاعه . إنما هو كل ما أودعه الله هذه الأرض ، من أسباب الرزق ومكوناته . وهي في الأصل ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض من عناصرها التي

تكونت منها ، وطبيعة تقسيم هذه العناصر بهذه النسب التي وجدت بها . ثم القدرة التي أودعها الله النبات والحيوان - ومنه الإنسان - على الانتفاع بهذه العناصر .

وفي اختصار نشير إلى أطراف من حقيقة الرزق بهذا المعنى :

« تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على المقادير التي تكاد تكون متناهية في الصغر من ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء ، والتي يمكن القول بأنها تنقسمها . ولكي نوضح هذا التفاعل الكيماوي المركب المختص بالتركيب الضوئي بأبسط طريقة ممكنة نقول : « إن أوراق الشجر هي رئات ، وإن لها القدرة في ضوء الشمس على تجزئة ثاني أكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأكسجين . وبتعبير آخر يلفظ الأكسجين ويحتفظ بالكربون متحداً مع هيدروجين الماء الذي يستمده النبات من جذوره (حيث يفصل الماء إلى هيدروجين وأكسجين) . بكيماويات سحرية تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكرأ أوسليلوزا ومواد كيميائية أخرى عديدة ، وفواكه وأزهارا . ويغذي النبات نفسه ، وينتج فائضاً يكفي لتغذية كل حيوان على وجه الأرض . وفي الوقت نفسه يلفظ النبات الأكسجين الذي ننسمه والذي بدونه تنتهي الحياة بعد خمس دقائق .

« وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب ، وكل ما يتعلق بمياه الزرع ، تبني تكوينها من الكربون والماء على الأخص . والحيوانات تلفظ ثاني أكسيد الكربون ، بينما تلفظ النباتات الأكسجين . ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة ، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأكسجين ، أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريباً . ومتى انقلب التوازن تماماً ذوى النبات أو مات الإنسان ، فيلحق به الآخر وشيكاً . وقد اكتشف أخيراً أن وجود ثاني أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضاً ضروري لمعظم حياة الحيوان ، كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأكسجين .

« ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضاً ، وإن كنا لا ننسمه . فبدون الهيدروجين كان الماء لا يوجد . ونسبة الماء من المادة الحيوانية أو النباتية هي كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة ولا غنى عنه مطلقاً »^١ .

وهناك دور الأزوت أو النتروجين في رزق الأرض .

« وبدون النتروجين في شكل ما لا يمكن أن ينمو أي نبات من النباتات الغذائية . وإحدى الويلتين اللتين يدخل بها النتروجين في التربة الزراعية هي طريق نشاط جراثيم « بكتريا » معينة تسكن في جذور النباتات البقلية ، مثل البرسيم والحمص والبسلة والفول وكثير غيرها . وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب قابل لأن يمتصه النبات وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب في الأرض .

« وهناك طريقة أخرى يدخل بها النتروجين إلى الأرض . وذلك عن طريق عواصف الرعد . وكلما ومض برق خلال الهواء ، وحد بين قدر قليل من الأكسجين وبين النتروجين ، فيسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب^٢ » (أي في الصورة التي يستطيع النبات امتصاصها لأنه لا يقدر على امتصاص النتروجين الخالص من الهواء ونسبته فيه حوالي ٧٨٪/ كما أسلفنا) .

والأرزاق المخبوءة في جوف الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التي لا يستها . ولا نطيل شرحها . فالرزق في ضوء هذه البيانات السريعة أوسع مدلولاً مما يفهمه الناس من هذا

(١) كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٦ - ٧٧ .

اللفظ . وأعمق أسباباً في تكوين الأرض ذاتها وفي تصميم الكون كله . وحين يأذن الله للناس في الأكل منه ، فهو يتفضل بتسخيره لهم وتيسير تناوله ؛ كما يمنح البشر القدرة على تناولها والانتفاع بها : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ..

وهو محدود بزمان مقدر في علم الله وتدبيره زمن الابتلاء بالموت والحياة ، وبكل ما يسخره الله للناس في هذه الحياة . فإذا انقضت فترة الابتلاء كان الموت وكان ما بعده :
« وإليه النشور » ..

إليه .. وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ؟ والمملك بيده ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ؟ وهو على كل شيء قدير ؟

* * *

والآن - وبينما هم في هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول ، وفي هذا اليسر الفاضل بإذن الله وأمره .. الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزا ويرجها رجاً فإذا هي تمور . ويثير الجوم من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور .. يهز هذه الأرض في حسهم ويثير هذا الحاصب في تصورهم ، ليتنبهوا من غفلة الأمان والقرار ، ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب ، ويعلقوا قلوبهم بقدر الله :
« أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ؟ فستعلمون كيف نذير ! ولقد كذب الذين من قبلهم . فكيف كان نكير ؟ » ..

والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول ، ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم ! يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولا حلوب ، في بعض الأحيان ، عندما يأذن الله بأن تضطرب قليلاً فيرتج كل شيء فوق ظهرها أو يتحطم ! ويمر كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة . ذلك عند الزلازل والبراكين ، التي تكشف عن الوحش الجامح ، الكامن في الدابة الذلول ، التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر ، ولا تجمع إلا ثواني معدودات يتحطم فيها كل ما شيد الإنسان على ظهرها ؛ أو يغوص في جوفها عندما تفتح أحد أفواهها وتخسف كسفة منها .. وهي تمور .. البشر ولا يملكون من هذا الأمر شيئاً ولا يستطيعون . وهم يبدون في هول الزلازل والبركان والخسف كالفتران الصغيرة محصورة في قفص الرعب ، من حيث كانت آمنة لاهية غافلة عن القدرة الكبرى المسكة بالزمام !

والبشر كذلك يشهدون العواصف الجامحة الحاصبة التي تدمر وتخرب ، وتحرق وتضعق . وهم بإزائها ضعاف عاجزون ، بكل ما يعلمون وما يعملون . والعاصفة حين تزار وتضرب بالحصى الحاصب ، وتأخذ في طريقها كل شيء في البر أو البحر أو الجو يقف الإنسان أمامها صغيراً هزيباً حسيراً حتى يأخذ الله بزمامها فتلس وتلين ! والقرآن يذكر البشر الذين يخدعهم سكون الدابة وسلامة مقادتها ، ويغريهم الأمان بنسيان خالقها ومروضها . يذكرهم بهذه الجمحات التي لا يملكون من أمرها شيئاً . والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور ، وتقذف بالحمم وتفور . والرياح الرخاء من حولهم تتحول إلى إعصار حاصب لا تقف له قوة في الأرض من صنع البشر ، ولا تصده عن التدمير .. يحذرهم وينذرهم في تهديد يرج الأعصاب ويخلخل المفاصل .

« فستعلمون كيف نذير » !!!

ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية ، ومن وقائع الغابرين المكذبين :

« ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟ » ..

الجزء التاسع والعشرون

والنكير الإنكار وما يتبعه من الآثار ، ولقد أنكر الله من كذبوا قبلهم أن يكذبوا . وهو يسألهم : « فكيف كان نكير ؟ » وهم يعلمون كيف كان ، فقد كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير !

والأمان الذي ينكره الله على الناس ، هو الأمان الذي يوحى بالغفلة عن الله وقدرته وقدره ، وليس هو الاطمئنان إلى الله ورعايته ورحمته . فهذا غير ذلك . فالمؤمن يطمئن إلى ربه ، ويرجو رحمته وفضله . ولكن هذا لا يقوده إلى الغفلة والنسيان والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها ، إنما يدعوه إلى التطلع الدائم ، والحياء من الله ، والحذر من غضبه ، والتوقي من المخبوء في قدره ، مع الإخبات والاطمئنان .

قال الإمام أحمد - بإسناده - عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : « ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهوآته . إنما كان يتسم . وقالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح . وقد رأى قوم العذاب وقالوا ، هذا عارض ممطرنا »

فهذا هو الإحساس اليقظ الدائم بالله وقدره ، وبما قصه القرآن من هذا في سيره . وهو لا ينافي الاطمئنان إلى رحمة الله وتوقع فضله .

ثم هو إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول . ورد الأمر بحاله وكليته إلى من بيده الملك وهو على كل شيء قدير . فالخسف والحاصب ، والبراكين والزلازل ، والعواصف ، وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس في أيدي البشر من أمرها شيء . إنما أمرها إلى الله . وكل ما يذكره البشر عنها فروض يحاولون بها تفسير حدوثها ، ولكنهم لا يتدخلون في إحداثها ، ولا يحمون أنفسهم منها . وكل ما ينشئون على ظهر الأرض تذهب به رجفة من رجفاتها ، أو أعصار من أعاصيرها ، كما لو كان لعباً من الورق ! فأولى لهم أن يتوجهوا في أمرها إلى خالق هذا الكون ، ومنشئ نواميسه التي تحكم هذه الظواهر ، ومودعه القوى التي يتجلى جانب منها في هذه الأحداث . وأن يتطلعوا إلى السماء - حيث هي رمز للعلو - فيتذكروا الله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

إن الإنسان قوي بالقدر الذي وهبه الله من القوة . عالم بالقدر الذي أعطاه الله من العلم . ولكن هذا الكون الهائل زمامه في يد خالقه ، ونواميسه من صنعه ، وقواه من إمداده . وهذه القوى تسير وفق نواميسه في حدود قدره . وما يصيب الإنسان منها مقدور مرسوم ، وما يعلمه الإنسان منها مقدور معلوم . والوقائع التي تحدث تقف هذا الإنسان بين الحين والحين أمام قوى الكون الهائلة مكتوف اليدين حسيراً ، ليس له إلا أن يتذكر خالق هذه القوى ومروضها ؛ وإلا أن يتطلع إلى عونه ليواجهها ، ويسخر ما هو مقدور له أن يسخره منها .

وحين ينسى هذه الحقيقة ، ويغتر وينخدع بما يقسم الله له من العلم ومن القدرة على تسخير بعض قوى الكون ، فإنه يصبح مخلوقاً مسيخاً مقطوعاً عن العلم الحقيقي الذي يرفع الروح إلى مصدرها الرفيع ، ويخلد إلى الأرض في عزلة عن روح الوجود ! بينما العالم المؤمن يركع في مهرجان الوجود الجميل ، ويتصل ببارئ الوجود

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث ابن وهب .

الجليل . وهو متاع لا يعرفه إلا من ذاق حلاوته حين يكتبها الله له !

على أن قوى الكون الهائلة تلجئ الإنسان إلجاء إلى موقف العجز والتسليم سواء رزق هذه الحلاوة أم حرمها . فهو يكشف ما يكشف ، ويبعد ما يبعد ، ويبلغ من القوة ما يبلغ . ثم يواجه قوى الكون في انكسار الحسير الصغير الهزيل . وقد يستطيع أن يتقي العاصفة أحياناً ولكن العاصفة تمضي في طريقها لا يملك وقفها . ولا يملك أن يقف في طريقها ، وقضارى ما يبلغ إليه جهده وعلمه أن يحتمي من العاصفة وينزوي عنها ! .. أحياناً .. وأحياناً تقتله وتسحقه من وراء جدرانته وبنياته . وفي البحر تتناوح الأمواج والأعاصير فإذا أكبر سفائنه كلعبة الصبي في مهب الرياح . أما الزلزال والبركان فهما هما من أول الزمان إلى آخر الزمان ! فليس إلا العمى هو الذي يهين بعض المناكيد أن « الإنسان يقوم وحده » في هذا الوجود ، أو أنه سيد هذا الوجود !

إن الإنسان مستخلف في هذه الأرض بإذن الله . موهوب من القوة والقدرة والعلم ما يشاء الله . والله كآله وحاميه . والله رازقه ومعطيه . ولو تخلت عنه يد الله لحظة لسحقته أقل القوى المسخرة له ، ولأكله الذباب وما هو أصغر من الذباب . ولكنه بإذن الله ورعايته مكفوء . ومحفوظ . وكريم . فليعرف من أين يستمد هذا التكريم ، وذلك الفضل العظيم .

* * *

بعدئذ ينتقل بهم من لمسة التهديد والنذير ، إلى لمسة التأمل والتفكير . في مشهد يروونه كثيراً ، ولا يتدبرونه إلا قليلاً . وهو مظهر من مظاهر القدرة ، وأثر من آثار التدبير الإلهي اللطيف .

« أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير » ..

وهذه الخارقة التي تقع في كل لحظة ، تنسنا بوقوعها المتكرر ، ما تشي به من القدرة والعظمة . ولكن تأمل هذا الطير ، وهو يصف جناحيه ويفردهما ، ثم يقبضهما ويضمهما ، وهو في الحالين : حالة الصف الغالبة ، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء ، يسبح فيه سباحة في يسر وسهولة ، ويأتي بحركات يخجل إلى الناظر أحياناً أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع !

تأمل هذا المشهد ، ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة بنوعه ، لا يملح النظر ، ولا يملح القلب . وهو متعة فوق ما هو مثار تفكير وتدبر في صنع الله البديع ، الذي يتعاقب فيه الكمال والجمال !

والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير :

« أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ » ..

ثم يوحى بما وراءه من التدبير والتقدير :

« ما يمسكهن إلا الرحمن » ..

والرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب ، الملحوظ فيه كل صغيرة وكبيرة ، المحسوب فيه حساب الخلية والذرة .. النواميس التي تكفل توافر آلاف الموافقات في الأرض والجو وخلقة الطير ، لتتم هذه الخارقة وتكرر ، وتظل تتكرر بانتظام .

والرحمن يمسكهن بقدرته القادرة التي لا تكل ، وعنايته الحاضرة التي لا تغيب . وهي التي تحفظ هذه النواميس أبداً في عمل وفي تناسق وفي انتظام . فلا تفترو ولا تختل ولا تضطرب غمضة عين إلى ما شاء الله : « ما يمسكهن إلا الرحمن » .. بهذا التعبير المباشر الذي يشي بيد الرحمن تمسك بكل طائر وبكل جناح ، والطائر صاف جناحيه

الجزء التاسع والعشرون

وحين يقبض ، وهو معلق في الفضاء !

« إنه بكل شيء بصير » ..

يبصره ويراه . ويبصر أمره ويخبره . ومن ثم يهتئ وينسق ، ويعطي القدرة ، ويرعى كل شيء في كل لحظة ، رعاية الخبير البصير .

وإمساك الطير في الجو كما إمساك الدواب على الأرض الطائرة بما عليها في الفضاء . كما إمساك سائر الأجرام التي لا يمسكها في مكانها إلا الله . ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلى كل مشهد يملكون رؤيته وإدراكه ، ويلمس قلوبهم بإيحاءاته وإيقاعاته . وإلا فصنعة الله كلها إعجاز وكلها إبداع ، وكلها إيحاء وكلها إيقاع . وكل قلب وكل جيل يدرك منها ما يطيقه ، ويلحظ منها ما يراه . حسب توفيق الله .

* * *

ثم يلمس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفرع من الخسف والحاصب ، بعد أن جال بهم هذه الجولة مع الطير السابح الآمن . فيردد قلوبهم بين شتى اللمسات عوداً وبدءاً كما يعلم الله من أثر هذا الترداد في قلوب العباد :

« أم من هذا الذي هوجند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا في غرور » ..

وقد خوفهم الخسف وخوفهم الحاصب ، وذكرهم مصائر الغابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير . فهو يعود ليسألهم : من هو هذا الذي ينصرهم ويحميهم من الله ، غير الله ؟ من هو هذا الذي يدفع عنهم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ « إن الكافرون إلا في غرور » .. غرور يهتئ لهم أنهم في أمن وفي حماية وفي اطمئنان ، وهم يتعرضون لغضب الرحمن وبأس الرحمن ، بلا شفاعة لهم من إيمان ولا عمل يستتزل رحمة الرحمن . ولمسة أخرى في الرزق الذي يستمتعون به ، وينسون مصدره ، ثم لا يخشون ذهابه ، ثم يلجئون في التبجح والإعراض :

« أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو ونفور » ..

ورزق البشر كله - كما سلف - معقود بإرادة الله في أول أسبابه ، في تصميم هذا الكون وفي عناصر الأرض والجو . وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقاً ، ولا تتعلق بعملهم بتاتاً . فهي أسبق منهم في الوجود ، وهي أكبر منهم في الطاقة ، وهي أقدر منهم على محوكل أثر للحياة حين يشاء الله . فمن يرزق البشر إن أمسك الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك العناصر الأولى التي منها ينشأ وجود الأشياء ؟ إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهداً وأعمق جذوراً مما يتبادر إلى الذهن عندما يسمع هذه الكلمة . ومرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره ، وإرساله للأسباب وإمساكها حين يشاء .

وفي هذا المدلول الكبير الواسع العميق تنطوي سائر المدلولات القريبة لكلمة الرزق ، مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفي طوقه ، كالعمل ، والإبداع ، والإنتاج .. وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والعناصر الأولى من جهة ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى . فأني نفس يتنفسه العامل ، وأي حركة يتحركها ، إلا من رزق الله ، الذي أنشأه ، ومنحه المقدرة والطاقة ، وخلق له النفس الذي يتنفسه ، والمادة التي تحترق في جسده فتمنحه القدرة على الحركة ؟ وأي جهد عقلي يبذله مخترع إلا وهو من رزق الله الذي منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟ وأي إنتاج ينتجه عامل أو مبدع إلا في مادة هي من صنع الله ابتداء ، وإلا بأسباب كونية

وإنسانية هي من رزق الله أصلاً ؟ .. « أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ ! » ..
« بل لجوا في عتو ونفور » .

والتعبير يرسم خدماً مصعراً ، وهيئة متبجحة ، بعد تقريره لحقيقة الرزق ، وأنهم عيال على الله فيه ، وأقبح العتو والنفور ، والتبجح والتصغير ، ما يقع من العيال في مواجهة المطعم الكاسي ، الرازق العائل وهم خلو من كل شيء إلا ما يتفضل به عليهم . وهم بعد ذلك عاتون معرضون وقحاء !
وهو تصوير لحقيقة النفوس التي تعرض عن الدعوة إلى الله في طغيان عات ، وفي إعراض نافر ، وتنسى أنها من صنع الله ، وأنها تعيش على فضله ، وأنها لا تملك من أمر وجودها وحياتها ورزقها شيئاً على الإطلاق !

* * *

ولقد كانوا - مع هذا - يهتمون النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه بالضلال ؛ ويزعمون لأنفسهم أنهم أهدى سبيلاً ! كما يصنع أمثالهم مع الدعاة إلى الله في كل زمان . ومن ثم يصور لهم واقع حالهم وحال المؤمنين في مشهد حي يجسم حقيقة الحال :

« أفن يمشي مكباً على وجهه أهدى ؟ أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم ؟ » .. والذي يمشي مكباً على وجهه إما أن يكون هو الذي يمشي على وجهه فعلاً لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله ، وإما أن يكون هو الذي يعثر في طريقه فينكب على وجهه ، ثم ينهض ليعثر من جديد ! وهذه كتلك حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر ، ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول ! وأين هي من حال الذي يمشي مستقيماً سوياً في طريق لا عوج فيه ولا عثرات ، وهدفه أمامه واضح مرسوم ؟ !

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله ، المحروم من هداية ، الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته ، لأنه يعترضها في سيره ، ويتخذ له مساراً غير مسارها ، وطريقاً غير طريقها ، فهو أبداً في تعثر ، وأبداً في عناء ، وأبداً في ضلال .

والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله ، الممتع بهداه ، الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور ، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد . وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء .

إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد . وحياة الكفر هي العسر والتعثر والضلال ..

فأيهما أهدى ؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب !

ويتوارى السؤال والجواب لبراءة للقلب هذا المشهد الحي الشاخص المتحرك .. مشهد جماعة يمشون على وجوههم ، أو يتعثرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق . ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات ، مستقيمة الخطوات ، في طريق مستقيم ، لهدف مرسوم .

إنه تجسيم الحقائق ، وإطلاق الحياة في الصور ، على طريقة القرآن^١ في التعبير بالتصوير ..

* * *

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » . وفصل « التخيل الحسي والتجسيم » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » « دار الشروق » .

وعلى ذكر الهدى والضلال ، يذكرهم بما وهبهم الله من وسائل الهدى ، وأدوات الإدراك ثم لم ينتفعوا بها ، ولم يكونوا من الشاكرين :

« قل : هو الذي أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون » ..

وحقيقة أن الله هو الذي أنشأ الإنسان ، حقيقة تلح على العقل البشري ، وثبت ذاتها بتوكيد يصعب رده . فالإنسان قد وجد - وهو أرفع وأعلم وأقدر ما يعلم من الخلائق - وهو لم يوجد نفسه ، فلا بد أن يكون هناك من هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده .. ولا مفر من الاعتراف بخالق . فوجود الإنسان ذاته يواجهه بهذه الحقيقة . والممارسة فيها نوع من المماحكة لا يستحق الاحترام .

والقرآن يذكر هذه الحقيقة هنا ليعلم بجانها ما زود الله به الإنسان من وسائل المعرفة :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » ..

وما قابل الإنسان به هذه النعمة : نعمة الإنشاء ونعمة السمع والأبصار والأفئدة :

« قليلاً ما تشكرون » ..

والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التي يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة ، معجزة أعجب وأغرب . ولم يعرف بعد عنها إلا القليل . وهي سر الله في هذا المخلوق الفريد ..

وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن معجزتي السمع والبصر نذكر منها لمحة :

« تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ، ولا يعلم إلا الله أين تنتهي . ويقول العلم : إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن ، التي تنظم دخوله ، ليقع على طبلة الأذن . وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن . » والتيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة . وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس .

« فما طول القوس منها وحجمها ؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف كل منها تركيباً خاصاً ؟ وما الحيز الذي وضعت فيه ؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة . هذا كله في التيه الذي لا يكاد يرى ! وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية . وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الألباب »^١ .

« ومركز حاسة الإبصار العين ، التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهي أطراف أعصاب الإبصار . وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية .. وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية »^٢ .

« وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات . ويقال : إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط . وقد نظمت كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للعدسات .. وعدسة عينك تختلف في الكثافة ، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة ، ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلاً »^٣ ..

فأما الأفئدة فهي هذه الخاصية التي صار بها الإنسان إنساناً . وهي قوة الإدراك والتمييز والمعرفة التي استخلف

(١) منقول عن كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥٧ .

(٢) منقول عن : المصدر السابق ص ٥٨ .

(٣) نقلاً عن كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ص ١١٣ .

بها الإنسان في هذا الملك العريض . والتي حمل بها الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال . أمانة الإيمان الاختياري ، والاهتداء الذاتي ، والاستقامة الإرادية على منهج الله القويم^١ ولا يعلم أحد ماهية هذه القوة ، ولا مركزها ، داخل الجسم أو خارجه ! فهي سر الله في الإنسان لم يعلمه أحد سواه . وعلى هذه الهبات الضخمة التي أعطاها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى ، فإنه لم يشكر : « قليلاً ما تشكرون » .. وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به ، كما يذكرهم القرآن في هذا المجال ويذكر كل جاحد وكافر ، لا يشكر نعمة الله عليه ؛ وهو لا يوفى حقها لو عاش للشكر دون سواه !

* * *

ثم يذكرهم أن الله لم ينشئ البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثاً ولا جزافاً لغير قصد ولا غاية . إنما هي فرصة الحياة للابتلاء . ثم الجزاء في يوم الجزاء :

« قل : هو الذي ذرأكم في الأرض ، وإليه تحشرون » ..

والذرء : الإكثار . ويحمل كذلك معنى الانتشار . والحشر : الجمع بعد النشر في الأرجاء . وهما حركتان متقابلتان من الناحية التصورية ، تقابلهما من الناحية المعنوية . ذلك مشهد للإكثار من الخلق ونشرهم أو نثرهم في الأرض . وهذا مشهد لجمعهم منها وحشرهم بعد النشر والنثر ! ويجمعهما السياق في آية واحدة ، ليتقابل المشهدان في الحس والتصور على طريقة القرآن . وليتذكر البشر وهم منتشرون في الأرض أن هناك غاية هم صائرون إليها ، هي الجمع والحشر . وأن هناك أمراً وراء هذا ، ووراء الابتلاء بالموت والحياة .

ثم يحكي شكهم في هذا الحشر ، وارتياهم في هذا الوعد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » ..

وهو سؤال الشاك المستريب . كما أنه سؤال المماحك المتعنت . فإن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر ؛ ولا علاقة لها بحقيقته ، وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء . ويستوي بالقياس إليهم أن يجيء غداً أو أن يجيء بعد ملايين السنين .. فالمهم أنه آت ، وأنهم محشورون فيه ، وأنهم مجازون بما عملوا في الحياة . ومن ثم لم يطلع الله أحداً من خلقه على مواعده ، لأنه لا مصلحة لهم في معرفته ، ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له في التكاليف التي يطالب الناس بها استعداداً لملاقاته ، بل المصلحة والحكمة في إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك الموعد ، دون الخلق جميعاً :

« قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » .

وهنا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والمخلوق . وتجرد ذات الله ووحدانيته بلا شبيه ولا شريك . ويتمحض العلم له سبحانه . ويقف الخلق - بما فيهم الرسل والملائكة^٢ - في مقامهم متأدين عند مقام الألوهية العظيم : « قل : إنما العلم عند الله . وإنما أنا نذير مبين » .. وظيفتي الإنذار ، ومهمتي البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

وبينما هم يسألون في شك ويجابون في جزم ، يخيل السياق القرآني كأن هذا اليوم الذي يسألون عنه قد جاء ،

(١) يرجع تفسير قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ... في ص ٢٨٨٤ - ٢٨٨٦ من الجزء ٢٢ من الظلال .
(٢) في حديث حقيقة الإسلام والإيمان .. سأل جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » .. أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

والموعد الذي يشكون فيه قد حان ؛ وكأنما هم واجهوه الآن . فكان فيه ما كان :
« فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون » !
فقد رأوه قريباً مواجهاً لهم حاضراً أمامهم دون توقع ودون تمهيد . فسيئت وجوههم ، وبدا فيها الاستياء .
ووجه إليهم التأنيب : « وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون » .. هذا هو حاضراً قريباً . وهو الذي كنتم تدعون
أنه لن يكون !

وهذه الطريقة في عرض ما سيكون تتكرر في القرآن ، لمواجهة حالة التكذيب أو الشك بمفاجأة شعورية
تصويرية تقف المكذب أو الشاك وجهاً لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه .
ثم هي في الوقت ذاته تصور حقيقة . فهذا اليوم كائن في علم الله ؛ أما خط الزمن بينه وبين البشر فهو قائم
بالقياس إلى البشر . وهي مسألة نسبية لا تمثل الحقيقة المجردة كما هي في حساب الله . ولو أذن الله لرأوه اللحظة
كما هو في علم الله . فهذا الانتقال المفاجئ لهم من الدنيا إلى الآخرة ، ومن موقف الشك والارتباب إلى موقف
المواجهة والمفاجأة ، يشير إلى حقيقة قائمة لو أذن الله بها لانكشفت لهم . في الوقت الذي يصور لهم هذه الحقيقة
تصويراً يهز مشاعرهم .

* * *

ولقد كانوا يتربصون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والحفنة المؤمنة التي معه أن يهلكوا فيستريحوا منهم ؛
وكانوا يتواصلون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل ، فتسكن هذه الزوبعة التي أثارها الدعوة في صفوفهم .
كما كانوا يتبجحون أحياناً فيزعمون أن الله سيهلك محمداً ومن معه لأنهم ضالون ، ولأنهم يكذبون على الله فيما
يقولون ! فهنا أمام مشهد الحشر والجزاء ، ينبههم إلى أن أمنيته حتى لو تحققت لا تعصمهم هم من عاقبة الكفر
والضلال . فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم قبل هذا الموعد الذي واجههم به كأنه واقع بهم :

« قل : أرايتم إن أهلكني الله ومن معي أورحمنا ، فمن يحير الكافرين من عذاب أليم ؟ » ..

وهو سؤال يرددهم إلى تدبر حالهم ، والتفكير في شأنهم ، وهو الأولى ! فما ينفعهم أن تتحقق أمانيتهم فيهلك
الله النبي ومن معه - كما لا ينقذهم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه ومن معه . والله باق لا يموت . وهو الذي
ذرأهم في الأرض وإليه يحشرون ..

ولكنه لا يقول لهم : فمن يحيركم من عذاب أليم ؟ ولا ينص على أنهم كافرون . إنما يلوح لهم بالعذاب الذي
ينتظر الكافرين : « فمن يحير الكافرين من عذاب أليم » .. وهو أسلوب في الدعوة حكيم ، يخوفهم من ناحية ،
ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية . فلو جابههم بأنهم كافرون ، وأنه لا مفر لهم من العذاب الأليم ..
فربما جهلوا وحمقوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد .

ففي بعض الحالات يكون أسلوب التلميح أفعال في النفس من أسلوب التصريح !

ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين ، إلى تقرير موقف المؤمنين من ربهم وثقتهم به وتوكلهم عليه ، مع
التلميح إلى اطمئنانهم لإيمانهم ، وثقتهم بهداهم ، وبأن الكافرين في ضلال مبين .

« قل : هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا . فستعلمون من هو في ضلال مبين » ..

وذكر صفة « الرحمن » هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه ؛ فهو لن يهلكهم كما يتمنى
الكافرون أو كما يدعون .

ويوجه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى إبراز الصلة التي تربطهم بربهم الرحمن . صلة الإيمان « آمنا به » .. وصلة التوكل « وعليه توكلنا » .. عليه وحده .. والتعبير يشي بالقربى بينهم وبين الرحمن . والله - سبحانه - هو الذي يتفضل على رسوله وعلى المؤمنين فيأذن له بإعلان هذه القربى ، ويوجهه إلى هذا الإعلان . وكأنما يقول له : لا تخف مما يقوله الكفار . فأنت ومن معك موصولون بي منتسبون إليّ . وأنت مأذون مني في أن تظهر هذه الكرامة ، وهذا المقام ! فقل لهم ... وهذا ود من الله وتكريم ..

ثم ذلك التهديد الملفوف : « فستعلمون من هو في ضلال مبين » .. وهو أسلوب كذلك من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ؛ ويدعوهم إلى مراجعة موقفهم مخافة أن يكونوا هم الضالين ! فيتعرضوا للعذاب الذي سبق ذكره في الآية : « فن يجير الكافرين من عذاب ألم ؟ » وفي الوقت ذاته لا يجبههم بأنهم ضالون فعلاً ، حتى لا تأخذهم العزة بالإثم . وهو أسلوب في الدعوة يناسب بعض حالات النفوس ..

* * *

وأخيراً يجيء الإيقاع الأخير في السورة يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول ، وهو الماء :

« قل : أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ؟ » ..

والماء الغور : الغائر الذاهب في الأرض لا يقدررون عليه . والمعين : النافع الفائض المتدفق . وهي لمسة قريبة في حياتهم ، إن كانوا ما يزالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه .. والملك بيد الله وهو على كل شيء قدير . فكيف لو توجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب ! ثم يدعهم يتدبرون ما يكون لو أذن الله بوقوع هذا المحذور !

* * *

وهكذا تنتهي هذه السورة ، وينتهي هذا الحشد من الإيقاعات واللمسات ، وهذه الرحلات والجولات . في آفاق وأغوار وأبعاد مترامية الأطراف . وكل آية على وجه التقريب كانت إيقاعاً خاصاً . أو كانت رحلة في عالم مجهول مغيب ، أو منظور لا تلتفت إليه الأنظار والقلوب . إنها سورة ضخمة . سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها . وكأنما هي سهام تشير إلى بعيد ، ويكاد كل سهم يستقل بكشف عالم جديد !

وهي تبني من قواعد التصور الإسلامي جوانب رئيسية هامة ؛ فهي تقرر في الضمير حقيقة القدرة المطلقة ، وحقيقة الهيمنة المطلقة . وحقيقة الابتلاء بالموت والحياة تمهيداً للحشر والجزاء . وحقيقة الكمال والجمال في صنعة الله . وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى . وحقيقة مصدر الرزق . وحقيقة حفظ الله للخلائق ، وحضوره سبحانه - مع كل مخلوق ... وجملة من هذه الحقائق التي يقوم عليها تصور المسلم لربه . وتصوره للوجود وارتباطه بخالق الوجود . هذا التصور الذي ينبثق منه منهج حياة المؤمن كله . مع ربه . ومع نفسه . ومع الناس . ومع الأحياء . ومع الكون كله من أحياء وأشياء . والذي يتكيف به شعوره وضميره وشخصيته وقيمه وموازينه ، واستقباله للحياة ...

* * *

(٦٨) سُورَةُ الْقَلَمِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَتَسْبِرْ وَيُصِرُّونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَدَّهَنُ فَيْدِهُونُ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُنَى بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْبِتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْشِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَنَدَرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ لَحْنٌ مَّحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحْيُرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَنُ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاتُؤَا بِشْرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِبُونَ ﴿٤٣﴾

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ رِيعَمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها . كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولاً ، وأن سائرها نزل أخيراً - ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال . لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد ، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقولهم : إنه مجنون !

والروايات التي تقول : إن هذه السورة هي الثانية في النزول بعد سورة العلق كثيرة ، ومن المتفق عليه في ترتيب المصاحف المختلفة أنها هي السورة الثانية ؛ ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، فتقول عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك القولة الفاجرة ؛ وأخذ القرآن يردّها وينفيها ، ويهدد المناهضين للدعوة ، ذلك التهديد الوارد في السورة .

واحتمال أن مطلع السورة نزل مبكراً وحده بعد مطلع سورة العلق . وأن الجنون المنفي فيه : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. جاء بمناسبة ما كان يتخوفه النبي - صلى الله عليه وسلم - على نفسه في أول الوحي ، من أن يكون ذلك جنوناً أصابه .. هذا الاحتمال ضعيف . لأن هذا التخوف ذاته على هذا النحو ليست فيه رواية محققة ، ولأن سياق السورة المتناسك يدل على أن هذا النفي ينصب على ما جاء في آخرها من قوله تعالى :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهذا هو الأمر الذي افتتح السورة بنفيه ، كما يتبادر إلى الذهن عند قراءة السورة المتأسكة الحلقات .

كذلك ذكرت بعض الروايات أن في السورة آيات مدنية من الآية السابعة عشرة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين . وهي الآيات التي ذكرت قصة أصحاب الجنة وابتلاءهم ، والآيات من الثانية والأربعين إلى نهاية الخمسين وهي التي تشير إلى قصة صاحب الحوت .. ونحن نستبعد هذا كذلك . ونعتقد أن السورة كلها مكية . لأن طابع هذه الآيات عميق في مكيتها . وهو أنسب شيء لأن يجيء في سياق السورة عند نزولها متسقاً مع الموضوع ومع الحالة التي تعالجها .

والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول ؛ وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم ، التي قال عنها قائلهم : « أساطير الأولين » .. وبعدها أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التي اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة في السورة على المكذبين ، والتهديد القاصم في أولها وفي آخرها على السواء .. والمشهد الأخير في السورة يوحي بهذا كذلك : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك في أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شيء من هذا - كما تقول الروايات الراجحة - إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة .

والسورة تشير إلى شيء من عروض المشركين على النبي - صلى الله عليه وسلم - للالتقاء في منتصف الطريق ، والتهادن على تراض في القضية التي يختلفون عليها وهي قضية العقيدة : « ودوا لو تدهن فيدهنون » .. وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية ، ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها ، وشعور المشركين بخطورها .

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى . وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل - قابلة للزيادة - بين بدء الدعوة وبين وقت نزولها . ولا يعقل أن ثلاث سنوات مرت لم ينتزل فيها قرآن . والطبيعي أن تكون هناك سور كثيرة ، وأجزاء من سور قد نزلت في هذه الفترة ، تتحدث عن ذات العقيدة بدون مهاجمة عنيفة للمكذبين بها كالوارد في هذه السورة منذ مطلعها .

ولكن هذا لا يني أن تكون هذه السورة وسورتا المدثر والمزمل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة . وإن لم يكن ذلك أول ما نزل كما هو وارد في المصاحف ، للأسباب التي أوردناها هنا . وهي تكاد تنطبق كذلك على سورتي المزمل والمدثر .

* * *

لقد كانت هذه الغرسة - غرسة العقيدة الإسلامية - تودع في الأرض لأول مرة في صورتها الرفيعة المجردة الناصعة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة ، لا في الجزيرة العربية وحدها بل كذلك في أنحاء الأرض جميعاً .

وكانت النقلة عظيمة بين الصورة الباهتة المحرفة المشوهة من ملة إبراهيم التي يستمسك بخيوط حائلة منها مشركو قريش ، ويلصقون بها الترهات والأساطير والأباطيل السائدة عندهم ، وبين الصورة الباهرة العظيمة

المستقيمة الواضحة البسيطة الشاملة المحيطة التي جاءهم بها محمد - صلى الله عليه وسلم - متفقة في أصولها مع الحيفية الأولى - دين إبراهيم عليه السلام - وبالغة نهاية الكمال الذي يناسب كونها الرسالة الأخيرة للأرض ، الباقية لتخاطب الرشد العقلي في البشرية إلى آخر الزمان .

وكانت النقلة عظيمة بين الشرك بالله وتعدد الأرباب ، وعبادة الملائكة وتمثيلها ، والتعبد للجن وأرواحها ، وسائر هذه التصورات المضطربة المفككة التي تتألف منها العقيدة الجاهلية .. وبين الصورة الباهرة التي يرسمها القرآن للذات الإلهية الواحدة وعظمتها وقدرتها ، وتعلق إرادتها بكل مخلوق .

كذلك كانت النقلة عظيمة بين الطبقة السائدة في الجزيرة ، والكهانة السائدة في ديانتها ، واختصاص طبقات بالذات بالسيادة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين العرب الآخرين .. وبين البساطة والمساواة أمام الله والاتصال المباشر بينه وبين عباده كما جاء بها القرآن .

ومثلها كانت النقلة بين الأخلاق السائدة في الجاهلية والأخلاق التي جاء القرآن يبشر بها ، وجاء محمد - صلى الله عليه وسلم - يدعو إليها ويمثلها .

وكانت هذه النقلة وحدها كافية للتصادم بين العقيدة الجديدة وبين قريش ومعتقداتها وأخلاقها . ولكن هذه لم تكن وحدها . فقد كان إلى جانبها اعتبارات - ربما كانت أضخم في تقدير قريش من العقيدة ذاتها - على ضخامتها . كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التي دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » .. والقريتان هما مكة والطائف . فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع شرف نسبه ، وأنه في الذؤابة من قريش ، لم تكن له مشيخة فيهم ولا رئاسة قبل البعثة . بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرهما ، في بيئة تجعل للمشيخة والرئاسة القبلية كل الاعتبار . فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء المشيخة !

وكانت هناك الاعتبارات العائلية التي تجعل رجلاً كأبي جهل (عمرو بن هشام) يأبى أن يسلم بالحق الذي يواجهه بقوة في الرسالة الإسلامية ، لأن نبيها من بني عبد مناف .. وذلك كما ورد في قصته مع الأخنس بن شريق وأبي سفيان بن حرب ، حين خرجوا ثلاث ليال يستمعون القرآن خفية ، وهم في كل ليلة يتواعدون على عدم العودة خيفة أن يراهم الناس فيقع في نفوسهم شيء . فلما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل رأيه فيما سمع من محمد كان جوابه : « ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فنتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! » .

وكانت هناك اعتبارات أخرى نفعية وطبقية ونفسية من ركام الجاهلية في المشاعر والتصورات والأوضاع كلها تحاول قتل تلك الغرسة الجديدة في مغرسها بكل وسيلة قبل أن تثبت جذورها وتتعمق ، وقبل أن تمتد فروعها وتتشابك . وبخاصة بعد أن تجاوزت دور الدعوة الفردية ؛ وأمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر بالدعوة ؛ وأخذت معالم الدعوة الجديدة تبرز ، كما أخذ القرآن يتنزل بتسفيه عقيدة الشرك وما وراءها من الآلهة المدعاة والتصورات المنحرفة والتقاليد الباطلة .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - ولو أنه نبي ، ولو أنه يتلقى من ربه الوحي ، ولو أنه يتصل بالملأ الأعلى .. هو بشر ، تخالجه مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة ، وتلك الحرب التي شنها عليه المشركون ، ويعاني وقعها العنيف الأليم ، هو والحفنة القليلة التي آمنت به على كره من المشركين .

وكان - صلى الله عليه وسلم - يسمع والمؤمنون به يسمعون ، ما كان يتقوله عليه المشركون ، ويتناولون به على شخصه الكريم ، « ويقولون : إنه لمجنون » .. ولم تكن هذه إلا واحدة من السخریات الكثيرة ، التي حكها القرآن في السور الأخرى ؛ والتي كانت توجه إلى شخصه - صلى الله عليه وسلم - وإلى الذين آمنوا معه . وغير الأذى الذي كان يصيب الكثيرين منهم على أيدي أقربائهم الأقربين !
والسخرية والاستهزاء - مع الضعف والقلة - مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية ، ولو كانت هي نفس رسول .

ومن ثم نرى في السور المكية - كسور هذا الجزء - أن الله كأنما يحتضن - سبحانه - رسوله والحفنة المؤمنة معه ، ويواسيه ويسري عنه ، ويثني عليه وعلى المؤمنين . ويرز العنصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبينا الكريم . وينبي ما يقوله المتقولون عنه ، ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم ، ويعفيهم من التكفير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا في سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - :
« ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم » ..
وقوله تعالى عن المؤمنين :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ ! » ..
ويقول عن أحد أعداء النبي البارزين :

« ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثم . عتل بعد ذلك زنم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم ! » ..

ثم يقول عن حرب المكذبين عامة :
« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملی لهم إن كيدي متين » ..
وذلك غير عذاب الآخرة المذل للمتكبرين :
« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ..

ويضرب لهم أصحاب الجنة - جنة الدنيا - مثلاً على عاقبة البطر تهديداً لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ؛ الكائدون للدعوة بسبب ما لهم من مال وبنين .
وفي نهاية السورة يوصي النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصبر الجميل : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت .. » .

ومن خلال هذه المواساة وهذا الثناء وهذا التشييت ، مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديد الرهيب ، يتولى الله - سبحانه - بذاته حربهم في ذلك الأسلوب العنيف .. من خلال هذا كله نتبين ملامح تلك الفترة ، فترة الضعف والقلة ، وفترة المعاناة والشدة ، وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة في تلك التربة العنيدة !
كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة وتعبيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التي كانت الدعوة الإسلامية تواجهها . وهي ملامح فيها سذاجة وبدائية في التصور والتفكير والمشاعر والاهتمامات والمشكلات على السواء . نلمح هذه السذاجة في طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - « إنه لمجنون » !

وهو اتهام لا حبكة فيه ولا براعة ، وأسلوب من لا يجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان ، كما يفعل السذج البدائيون .

ونلمحها في الطريقة التي يرد الله بها عليهم فريتهم رداً يناسب حالهم : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلی خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون » .. وكذلك في التهديد المكشوف العنيف : « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملی لهم إن كيدي متين » ..

ونلمحها في رد هذا السب على رجل منهم : « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثم . عتل بعد ذلك زنيم ... » .

ونلمحها في القصة - قصة أصحاب الجنة - التي ضربها الله لهم . وهي قصة قوم سذج في تفكيرهم وتصورهم وبطبرهم ، وفي حركاتهم كذلك وأقوالهم « وهم يتخافتون . ألا يدخلونها اليوم عليكم مسكين .. الخ » .

وأخيراً نلمح سذاجتهم من خلال ما يوجهه إليهم من الجدل : « أم لكم كتاب فيه تدرسون : إن لكم فيه لما تنخرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » ... وهي ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآني ، وتفيد في دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ، ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وتلك الجماعة في أواخر عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومدى ما نقلها من هذه السذاجة في التفكير والتصور والشعور والاهتمام . كما يتضح في أساليب الخطاب فيها بعد ، وفي الحقائق والمشاعر والتصورات والاهتمامات بعد عشرين عاماً لا تزيد . وهي في حياة الأمم ومضة لا تذكر . ولا تقاس إليها تلك النقلة الواسعة الشاملة .. التي انتقلت بها الجماعة في هذا الوقت القصير . والتي تسلمت بها قيادة البشرية فارتفعت بتصوراتها وأخلاقها إلى القمة التي لم ترتفع إليها قيادة قط في تاريخ البشرية ، لا من ناحية طبيعة العقيدة ، ولا من ناحية آثارها الواقعية في حياة الإنسان في الأرض ، ولا من ناحية السعة والشمول لتضم الإنسانية كلها بين جوانحها في سماحة وعطف ، وفي تلبية لكل حاجاتها الشعورية ، وحاجاتها الفكرية ، وحاجاتها الاجتماعية ، وحاجاتها التنظيمية في شتى الميادين ..

إنها المعجزة تتجلى في النقلة من هذه السذاجة التي تبدو ملامحها من خلال مثل هذه السورة إلى ذلك العمق والشمول . وهي نقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة ، والضعف إلى قوة ، لأن بناء النفوس والعقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف .

* * *

« ن ، والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلی خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم » ..

يقسم الله - سبحانه - بنون ، وبالقلم ، وبالكتاب . والعلاقة واضحة بين الحرف (نون) . بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة .. فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها ، في وسط الأمة التي لم تكن تنجبه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة ، في الوقت الذي كان دورها المقدرها في

علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها ، وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض . ثم لنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة . وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحي بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .. وأن يكون هذا الخطاب موجهاً للنبي الأمي - الذي قدر الله أن يكون أمياً لحكمة معينة - ولكنه بدأ الوحي إليه منوهاً بالقراءة والتعليم بالقلم . ثم أكد هذه اللفتة هنا بالقسم بنون ، والقلم وما يسطرون . وكان هذا حلقة من المنهج الإلهي لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكوني الضخم الذي قدره لها في علمه المكنون .

* * *

يقسم الله - سبحانه - بنون والقلم وما يسطرون ، منوهاً بقيمة الكتابة معظماً لشأنها كما أسلفنا لينبي عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - تلك الفرية التي رماه بها المشركون ، مستبعداً لها ، ونعمته على رسوله ترفضها . « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » ..

فيثبت في هذه الآية القصيرة وينبي .. يثبت نعمة الله على نبيه ، في تعبير يوحى بالقربى والمودة : حين يضيفه سبحانه إلى ذاته : « ربك » . وينبي تلك الصفة المقررة التي لا تجتمع مع نعمة الله ، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه ..

وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قومه ، من قولتهم هذه عنه ، وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة . وهم الذين لقبوه بالأمين ، وظلوا يستودعونهم أماناتهم حتى يوم هجرته ، بعد عدائهم العنيف له ، فقد ثبت أن علياً - كرم الله وجهه - تخلف عن رسول الله أياماً في مكة ، ليرد إليهم ودائعهم التي كانت عنده ، حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف . وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة . فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل نبوته ؟ قال أبو سفيان - وهو عدوه قبل إسلامه - لا ، فقال هرقل : ما كان ليدر الكذب على الناس ويكذب على الله !

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذي يدفع مشركي قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم ، المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم . ولكن الحقد يعمي ويصم ، والغرض يقذف بالفرية دون تحرج ! وقائلها يعرف قبل كل أحد ، أنه كذاب أثيم ! « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. هكذا في عطف وفي إيناس وفي تكريم ، رداً على ذلك الحقد الكافر ، وهذا الافتراء الذميم .

« وإن لك لأجراً غير ممنون » ..

وإن لك لأجراً دائماً موصولاً ، لا ينقطع ولا ينتهي ، أجراً عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم .. وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون . وماذا فقد من يقول له ربه : « وإن لك لأجراً غير ممنون » ؟ في عطف وفي مودة وفي تكريم ؟

* * *